عزيز نيسين

خُذوا حَذَرَكــم؟!

قصص

ترجمة
محمد مولود فاقي

قَدْري البسيط جداً

إنها قصة أب أرمل ذي دخل محدود، عانى الكثير من المصاعب في سبيل رعاية وتربية طفلتيه الصغيرتين، وهذا ما ستفهمونه أثناء قراءتكم القصة.

لقد طرد المرأة التي كانت تأخذ نصف راتبه من أجل أن تعتني بابنتيه، ولكنها بدلاً من رعايتها لهما كانت تتركهما في الأزقة، تفترشان أبواب الجيران، ثم جاء بامرأة مسنة تكبره كثيراً، ووضعها في غرفته الوحيدة والمقامة ((بغير رخصة))، ما لبثت تلك المرأة المسنة أن وضعت شرطها وهو: إما أن يتزوجها أو تترك البيت ولا تعتني بالطفلتين أبداً.

بعد ذلك أخذ الطفلتين إلى أحد أقاربه في إحدى القرى القريبة وتركهما عنده، وعندما علم قدري أن قريبه هذا لم يعتن بالطفلتين، والأموال التي يرسلها له أخذ يشتري بها كل مرة حصاناً أو بقرة أو عربة، تملكته الحيرة و لم يدر ماذا يفعل ...في هذه الأثناء ساقت الأقدار رجلاً ((لا ينجب الأطفال)) ادعى أن زوجته تحبُّ الأطفال كثيراً، وطلب من قدري أن يترك الطفلتين عنده، لكن بعد مرور أقل شهر تراجع الرجل عن قراره قائلاً: با لله عليك خذ ابنتيك وارحل، لأن بيتي على وشك أن ينقلب رأساً على عقب. والسبب في ذلك أن شائعات كثيرة ترددت في الحي مفادها أنه /أي الرجل/ الذي جاء بابنتيه من امرأة ثانية هي عشيقة له وأن زوجته العاقر /الحقيقية/ تعتني بهما. وما لبث أن ظهر فاعل خير قديم، أخذ الطفلتين إلى بيته، ولأسباب أمنية وسوابق اختطاف لأطفال صغار، وكتابة الجرائد عن ذلك عاد بالطفلتين من بيت صديقه.

كان لقدري هذا ابنة عمة تسكن في قرية نائية وسط الأناضول، أخذ الطفلتين لتعيشا معها.. كان يرسل إليهما مصاريفهما كل آخر شهر . لنسمع بقية القصة من قدري نفسه..

لأنها كانت تكبرني ستة عشر عاماً كنت أناديها ((آبلة))، أي الشقيقة الكبرى وكان رأيها: سأزوجك..!!.

انظر.. سأقص لك حكاية لتكون عبرة لك: ((أحد المتشردين مثلك طلب يد فتاة وهي من العائلات الغنية ذات الحسب والنسب وعندما سأله أهلها: ماذا تمتلك من المال ؟.

قال: أملك طاحونتين ومن يملك طاحونتين يحق له أن يتزوج بأربع نساء وليس بواحدة. زوجوه البنت وسرعان ما عرفوا أن الرجل لا يملك إلا الثياب التي تستر جسده. وعندما سألوه /تحت الضغط والتهديد/ كنت تقول أنك تملك طاحونتين فأين هما؟.. عند ذلك قال لزوجته: افتحي الصرة الموجودة في الخزانة وانظري.. فتحت الزوجة الصرة ووجدت طاحونتين صغيرتين لطحن البن.

نعم هكذا يتزوج الناس، كي تدخل على أي فتاة ستري أهلها طاحونة يد أو هواء أو ماء هذا غير مهم، المهم طاحونة.. وستجعل من الواحد ألفاً.. وبعد أن تدخل عليها لتصبح حلالك، والزوجة الحلال أضمن من قطعة أرض تسجلها باسمك، والكذب في هذه القضايا ليس إثماً.. لأنك ستدخل بيت /الدنيا/ بيت العز والنعيم.

عدت إلى استانبول، وبعد مرور أسبوع أو أقل استلمت برقية من ابنة عمتي (آبلتي)، تقول فيها: إن الطفلتين مريضتان.. تعال بسرعة..

يا إلهي ما هذا الذي يحدث لي بسبب هاتين الطفلتين. أرسلتُ برقية جوابية: سأستقل الحافلة وأكون عندكم يوم كذا.. وباختصار لم ألحق

الحافلة، قررت الذهاب بالتاكسي، كان عدد الركاب أربعة وأنا الخامس وانطلقنا.. قبل أن نصل القرية نزل الركاب الأربعة واحداً تلو الآخر بقيت وحيداً في السيارة وكأنها خاصة بي..

أما الباص الذي لم ألحق به كان قد وصل لتوه والمسافرون لا يزالون ينزلون منه. ثمة جمهرة كبيرة من أهل القرية تحمل الأعلام والرايات وقد أحاطت بالباص من كل جانب، تمهلت السيارة وقتها وهي تمر بين الزحام: سمعت بعض كلام الناس.

- إذن لم يأت بهذا الباص؟.

(يا عالم.. ياهو؟ هل نصدق من أن إنساناً كبيراً مثل قدري يأتي بالباص؟ لا شك أنه يركب سيارة خاصة به وربما يملكها.

بعضهم سأل السائق: هل ركب قدري باصك؟.

مرت العربة من بين الزحام.. ورأيت نفسي أمام منزل ابنة عمي.. وإذ بطفلتي تلعبان في فناء الدار.. ما هذا ؟؟ إن الثياب التي عليهما /لا بنات البشوات ولا البكوات لبسنها/.. إنها الفخامة بعينها ؟! فقالت ابنة عمي: كانتا مريضتين ولكنهما قد تحسنتا، كانت خدودهما كالوردة الجورية..

عند ذلك قلت لابنة عمي: لماذا أتيت بي إلى هنا؟ من أجل نزلة برد خفيفة عطّلتِ عليَّ أشغالي وقطعت علي راتبي...

نظرت إلى يدي الطفلتين.. كانت تضم بعض السكاكر الغالية الثمن كأولاد الذين يملكون الملايين. فقلت لها بـا لله عليك يا آبلة ما هذا الذي أراه لا بد أن أخلاقهما ستفسد.

قالت ابنة عمي للطفلتين: هيا يا بناتي أحضرن بعض الحلويات وألعابكن وكل ما تملكن ليراها والدكن. ذهبت الطفلتان وعادتا

تحملان الألعاب والسكريات المتنوعة وعلباً وفواكه.. قلت باستغراب: ما هذا يا ابنة عمي؟ هل ربحت الجائزة الكبرى من اليانصيب؟؟!!.

قالت: اسكت ولا تقل شيئاً، إنني سأزوجك زيجة رائعة لقد وجدت لك فتاةً من أجمل فتيات القرية. وهي ذات حسب ونسب وجسدها لم تره الشمس أبداً /وفوق ذلك/ لم يلمس يدها أحد من الرجال ووالدها غني مثل قارون..!!.

أردفتُ: لا بد أنها مجنونة هي ووالدها.

قالت: لماذا؟ ..تقولين لماذا؟.. إن هذا الرجل مجنون حتماً.. لأنه يريد أن يزوج ابنته الوحيدة لرجلٍ مثلي. لا يملك شجرة واحدة باسمه في هذه الدنيا؟!.

- وأنت ما زلت قدري الذي أعرفه منذ سنوات طويلة..

- في هذا العالم أفراد كثيرون اسمهم قدري، ولا أشك أن السماء تمطر المال لكل فرد اسمه قدري!! وأنا أقول ذلك تذكرت الجمهرة أثناء قدومي فسألتها (آبلة لماذا كل الناس مجتمعين في ساحة البلدية؟ ثم أنهم كانوا يسألون سائق الحافلة عن قدري)؟.

قالت: لقد خرجوا لاستقبالك..

- أعوذ با لله.. لماذا يخرجون لاستقبالي أنا يا آبلة؟.

لأنك قدري..!! وليس من السهل أن يكون الإنسان قدرياً في هذه الأيام.

وبينما نحن نتبادل الحديث أمام باب المنزل وبعد أن أنهت ابنة عمي الحديث ظهر خمسة رجال يتجهون نحونا وعلى وجوههم ابتسامة عريضة. اتجهوا نحوي مباشرة ووقفوا أمامي وصافحوني واحداً بعد الآخر.. أهلاً وسهلاً يا قدري بك.

قلت: أهلاً بكم وسكتُ. تملكتني الدهشة و لم أدر ماذا أفعل.

قال أحدهم: رفاقنا ينتظرون تشريفكم إلى النَادي ويريدون مشاهدتكم.. لم أدرِ ماذا أفعل؟ في كل حياتيِ الماضية لم أسمع كلاماً وتبجيلاً بهذا الشكلَ.. فقلت في نفسي متسائلا: هل يمزحون معي؟... ولماذا؟ يجب أن أفهم مقصدهم فقلت لهم: بلغوا سلامي وتحياتي إلى الرفاق الذين يريدون مشاهدتي. إنني سأزورهم في وقت لاحق.. لأنني متعبٌ جداً من السفر. ثم جمعوا بعضهم وذهبوا..

عندها قلت لابنة عمي: ما هذا يا آبلة؟ ولكنها لم تفصح عن شيء. ابتسمت ومضت.

اللعبة التي كانت تلعبها ابنة عمي لم يكن لي علم بها.. ولكني علمت بها في وقت لاحق والقصة جرت على الشكل التالي:

في أحد الأيام وهي راجعة من السوق /ابنة عمي/ لاحظت أمام المقهى جمهرة غفيرة من الناس تجتمعين فوق بعضهم يصغون لرجل يصرخ في المذياع.. يستمعون ويصغون بصبر وثبات. اقتربت من أحدهم وسألته: ماذا تسمعون؟ هل حكومتنا تصرخ وتتكلم هكذا؟ وهل هناك أخبار جديدة؟..

ماذا تقولين يا أخت؟ لو أن الحكومة تتكلم لكنا كسرنا قفل المذياع وأغلقناه.. هيا أنصتي أنتِ يا غبية.. عندها وقفتْ وأصغتْ أذنيها للمذياع " أخذ قدري.. حاور قدري.. سبق قدري.. قدري أعطى.. لفَّ قدري..".

دخلتْ أحد بيوت الجيران لتسأل عن مغزى ذلك.. عن سبب كل هذا الصراخ والانتباه والإصغاء: لكن البيت الذي دخلته كان كالمقهى، مذياعه يصرخ.. وكل أهل البيت صغاراً وكباراً يستمعون..

"لقد ابتعدتْ عن قدري.. آه يا قدري.. قدري أخذها ثانية.. عاش قدري.. قدري السبع.. قدري سحبها.. دخل قدري "..

أسرعت إلى المنزل وفتحت المذياع وسمعت اسم قدري.. لاحظت أن جميع أهل القرية كبيرهم وصغيرهم يتحدثون عن قدري "قدري تحت.. قدري فوق".. لا يوجد إلا قدري واحد. ابنة عمي ذهبت إلى منزل الفتاة التي وضعت عينها عليها كي تطلب يدها لي، وجرى بينهما النقاش التالي:

- ألا تعرفين قدري؟. إنه يقول..
- ومن لا يعرف قدري.. نعم.. نعم قدري ماذا جرى له؟.
- ماذا سيجري يعني ؟ أبداً بالأمس استلمت رسالة.
- ماذا .؟. رسالة.. من قدري أليس كذلك؟.
- بنت.. ما هذا.. لقد ارتعشت شفتاك بمجرد سماعك لاسم قدري وصار جسمك يرتجف عند سماعك لاسمه.. ماذا جرى لك؟..

قدري هو ابن خالي ويقول في رسالته "ابحثي لي عن فتاة جميلة وذات حسب ونسب، لأنني أريد أن أتزوجها" وقد طلق زوجته القديمة لأنها كانت تدهن وجهها وشفتيها بالحمرة الكاذبة.. والآن يريد جمالاً طبيعياً دون صباغ أو رتوش. ويطلب أن تكون الزوجة المقبلة أمّاً لطفلتيه.

- يا لله عليك.. هاتان الطفلتان الصغيرتان بنتا قدري أليس كذلك..
- بالتأكيد بنتا قدري.

عندها أدارت الفتاة وجهها إلى الجهة الثانية ومسحت حمر شفاهها وطلاء خديها ووجهها بقطعة قماش قائلة: أنا لا أصبغ وجهي بالأحمر أبداً.

- لا تستعجلي كثيراً.. لنأخذ رأي والدك أولاً..
- والدي راضٍ عن قدري منذ الأمس.

وعندما سمع والد الفتاة ذلك قال بسرور: آه.. إذن قدري من أحبابنا أليس كذلك؟ أوه.. أوه.. ليأت إذن إلى هنا ويقوم بتدريب فريقنا.. سنتغلب على فريق "جاي اسبور" بكل سهولة.

وجاي اسبور - هو فريق القرية المجاورة. وكان يفوز على فريق القرية في كل مرة يلعبان فيها.

قالت ابنة عمي: بالنسبة لمجيئه أمر سهل /فهو يأتي/ ولكن ماذا سيفعل هنا؟.

عندها قال الرجل: لا أملك في هذه الدنيا إلا ابنتي الوحيدة. وصهري يعني /ابني/ وانتشر الخبر سريعاً /الطفلتان هما ابنتا قدري لاعب الكرة الشهير/ بدأ الناس برفع الطفلتين فوق أكتافهم بالرعاية والعناية. فلا تستطيع أن تحصي أعداد الذين يأتون بالمآكل والمشارب والألبسة لهما.. وعودة الحياة والصحة إلى الطفلتين كان سببها هذه الرعاية والعناية من قبل أهل القرية. وأنا كما قلت ليس لي علم بكل الذي جرى والذي يجري، وابنة عمي لم تخبرني عنها كي لا أتركها وأعود ثانية قبل أن أتزوج تلك الفتاة. أخذت بعضي ودخلت البيت لأفكر جيداً بالذي جرى معي قبل لحظات. جلست أمام النافذة أنظر إلى الخارج تتقاذفني الأفكار. بيت ابنة عمي في منطقة مرتفعة ومنحدرة وقليلون جداً الذين يمرون أمام منزلها.. ومهما يكن فقد كان الطريق

أمام المنزل يعج بالمارين جماعات.. جماعات في هذا اليوم، شباب القرية زرافات ووحدانا كانوا يمرون وينظرون إلى النافذة التي أجلس خلفها..

فقلت لابنة عمي: هناك شيء ما يجري.. هيا أخبريني ما الذي يحدث. فالناس متجمعون بكثرة أمام المنزل والجميع يتحدثون "عن شيء" وهم ينظرون إلى النافذة.

قالت: لماذا لا ينظرون؟! حتماً سينظرون لأنهم سمعوا بأنك ستصاهر أشرف عائلات القرية، طرق الباب وخرجت ابنة عمي إلى الخارج بينما كنت أمام النافذة أراقبها. ثمة شابان كانا قد وقفا أمام ابنة عمتي قال أحدهما: النادي لم يعد يتسع لأحد، الجميع ينتظرون قدري بك. ألن يأتي؟.

فقالت ابنة عمي: إنه مُتعب جداً وسيذهب صباح الغد، عندها ركضتُ نحو الباب قائلاً: وأنا أحاول انتعال حذائي سريعاً: ما هذا يا ناس؟ ما هذا النادي؟ لنذهب ونلقي نظرة عليه ونشاهده عن كثب، ونزلت الشارع وخلال لحظات قليلة تجمهر حولي بشرٌ كثيرون لا أدري من أين أو أين كانوا؟ المهم أنهم أحاطوا بي من كل جانب فالذي يربّت على كتفي بلطف والذي يمسح ظهري والذي يتأبط ذراعي، الجميع يرحب بي بشكل غير عادي، حتى أوصلوني إلى المكان الذي يسمى بالنادي، وما أن وصلت إلى الباب إذ بي أجد نفسي محمولاً على أكتافهم.

كانت لحظات رهيبة!! أحسست بحركات أصابعهم تدغدغ جسمي، ومن جهة ثانية كنت في دهشة كبيرة مما أرى..

- لا تفعلوا ذلك يا شباب.. ما هذه المصيبة التي نزلت على رأسي. قلت ذلك وأنا أحاول أن أتخلص من أيديهم /لكن مهما صرخت

ومهما حاولت فإنهم لن يسمعوني من شدة صراخهم/. يعيش.. يعيش.. عاش.. عاش.. وأنا أطير في الهواء وعلى رؤوس أصابعهم. صعدوا بي الدرج وأدخلوني إلى صالة واسعة مكتظة بالناس وهم يتزاحمون ويتدافعون لملاقاتي ومصافحتي. كادت الصالة تتداعى فوق رؤوسنا من شدة الصراخ، فقلت للشاب الذي يتأبط ذراعي بعد أن أنزلوني الأرض: ما هذه الموجة يا رفيقي؟ لم أفهم شيئاً، وبما أنني لست مسؤولاً حكومياً /كبيراً أو صغيراً/ لماذا كل هذا الاستقبال الكبير.. بالتأكيد هناك خطأ ما في الأمر..!! قال الرجل مبتسماً: وهل هناك مسؤول حكومي أفضل منك اعذرنا.. توقعنا بجيئك بالحافلة.. ولهذا خرج الشباب لاستقبالك هناك.. ولكنك أتيت بالسيارة.

– يا أخي أنا لا أسألك عن ذلك.. أنا أسألك عن هذه الأبهة والاستقبال الكبيرين اللذين تقومون بهما من أجلي. لماذا كل ذلك؟..

– أنت الإنسان الوحيد العظيم والكبير في هذه الدولة.. وأنت قدري الكبير.. فكيف لا نقوم بهذا الاستقبال والحفاوة فهذا قليل جداً..

– الله.. الله – أنا قدري طوال هذه السنوات.. ولكني لم أجد أحداً عززني وكرمني بهذا المقدار.. وما معنى أن يكون شخصاً يدعى قدري، المطلوب منكم أن تحدثوني عن الحقيقة والواقع.

– كونك قدري فإننا لا نجد مكاناً يليق بك. هذه هي الحقيقة وهذا هو الواقع.

– ولكن ألا يوجد أحد هنا باسم قدري..

عند ذلك ضحك الرجل لسؤالي. وناولوني فنجاناً كبيراً من القهوة، فقلت في نفسي: الناس هنا ربما يتفاءلون باسم قدري ولهذا فقد

رفعوني وكرموني بهذا الشكل؟ وكل مدينة لها عاداتها ومعتقداتها؟ وأنا أقول ذلك في قرارة نفسي وإذا بشاب يحدثني قائلاً: يا قدري بك هل سنفوز على انكلترا؟.

بإذن الله سنفوز عليها؟ قلت ذلك ورحت أتساءل في قرارة نفسي، هل بدأت الحرب حقاً بيننا وبين انكلترا حتى نفوز عليها؟.

– إذن سنفوز عليها.

– وهل لديك شك في ذلك.. إننا أقوياء في إيماننا وقوتنا فلماذا لا نتغلب عليها.. أنا أعتقد أننا سنفوز على روسيا وعلى أمريكا وألبانيا أيضاً.

– لأنهم يقولون أن انكلترا قوية في تكتيكها وبراعتها؟.

– وماذا يفعل التكتيك والبراعة عند قوة الإيمان يا أخ.. عندما نمشي ونحن نكبر.. الله.. الله.. فانكلترا تترك تكتيكها وحتى أحذيتها وتهرب.

– ماذا لو تحدثنا عن هدفك الرائع الذي "سجلته، لنادي ابن البك دباي أوغلو"؟.

عندها فهمت أن هؤلاء يسخرون مني.. قلت في نفسي: لقد عشت في استنبول سنوات كثيرة.. لن تتراجع أمام هؤلاء.. ستقف أمامهم وتعطيهم الجواب؟ فقلت: بإذن الله وضعنا هدفاً وقبل هذا الهدف لنا أهداف كثيرة ورائعة وغير متوقعة.

– وهل ستصبح بطلاً في هذا العام أيضاً؟..

لقد زاد هؤلاء من مزاحهم وسخريتهم فقلت: البطولة كالحجل في الكيس، فخرج أحدهم الذي كانت تبدو عليه الصرامة والرجولة قائلاً: هل تستطيع أن تحدثنا عن بعض ذكرياتك.. عندها قلت: اسمحوا لي يا

سادة غداً نلتقي – ومشيت ولكنهم لم يتركوني- فلحقوا بي وهم يصرخون وينادون بحياتي عاش.. عاش.. حتى أدخلوني المنزل.. وفور دخولي سألت ابنة عمي: ما هذه الحماقات؟ إنني لم أفهم شيئاً.

أجابت: دع عنك هذا الأمر.. الآن هيا جدد حلاقة ذقنك إننا مدعوون إلى الغداء.

– أين..

– إلى (بيت حميك).

– آبلة.. أنت أيضاً تسخرين مني.. أنا إنسان غريب.

– ما هذه الحماقات.. با لله عليك؟!.

– هيا جهز نفسك بسرعة عندما تذهب ترى ذلك بنفسك، لقد تأخرنا لا بد أن الجماعة ينتظروننا على المائدة الآن، وهذا عيب كبير.

ومع أنني شحذت موسى الحلاقة القديم جيداً.. إلا أنني تركت في وجهي أثلاماً متنوعة امتلأتْ بالدماء، وبمجرد انتهائي من الحلاقة، قادتني ابنة عمي إلى أحد البيوت كما لو أنها تقود إوزة لأحد الملوك.. لست أدري كيف سأفسر لكم الأمر.؟..

وصلنا المنزل وكان مفروشاً بالبسط والسجاد والموكيت، وصاحبه لم يترك أحداً في القرية من الذكور إلا ودعاه. فاستقبلوني بكلمات رائعة -تفضلوا.. تفضلوا.. وأجلسوني فوق (فروة) كبيرة.. وبعد سؤالي عن الصحة والأحوال تكلم الذي سيصبح عمي.. إيه يا قدري بك، إن شاء ا لله ستستقر هنا وتدرب فريقنا تدريباً جيداً أليس كذلك؟؟.

– عن أي فريق تتكلمون؟.

فريق هذه القرية "فريق الشباب الرياضي". عندها فكرت بشتمهم جميعاً ولكنني ضغطت على نفسي وصبرت لأنني ضعيف في منزلهم وقريتهم وسكت رغماً عني وأنا قول سيحصل.. سيحصل.. وجلسنا على المائدة -يا لها من مائدة! وليمة كبيرة لا تقام إلا في قصور الملوك والأمراء.. فأكلنا وشربنا وعندما عدنا إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل قلت لابنة عمي: لا تفعلي ذلك يا آبلة. هناك سر في هذا الأمر.. ما الحكاية؟ لقد بلغت هذا العمر، و لم أُقابَل بهذا الاحترام والتقدير. بل العكس تماماً لقد أُوصدت الأبواب كلها في وجهي وطُردت من كل الأعمال وأُهنتُ أينما حللت.

– لقد بنى طائرُ الحظِّ عشه في رأسكَ وأنتَ لا علم لك. إن حماك أحبك.. والبنت ظلت تراقبك من فتحة الباب، وأُعجبت بك كثيراً وقالت: إن ا لله قد أرسلك إليها خصيصاً وغداً سأطلبها لك رسمياً.

– با لله عليك لا تفعلي ذلك يا ابنة عمتي. يجب أن أجلس مع البنت وأتحدث معها وجهاً لوجه وإلا لن أرضى أبداً.. وعندما أحست بعدم تمكنها مني وبإصراري الشديد على مقابلة البنت.

ذهبت إلى منزلها وقابلت أهلها وأنتم تعلمون إننا نعيش في زمن غير زمننا، لقد تغير كل شيء وأصبح عصرياً، ولا بد قبل الزواج أن يجلس العريس والعروس ليتفاهما ويتناقشا، وبما أن ابن خالي قدري لاعب كرة عصري ومشهور فهو يطلب الانفراد بالحديث إلى ابنتكم.. فكان ردهم بالرغم من أننا قرويون ولكننا لسنا بعيدين عن الحضارة.. وماذا يعني، ليتفضل ويجلس مع ابنتنا في غرفة على انفراد، ولكن هناك شرط واحد.. يجب أن لا تمس يده يدها مهما كلف الأمر.

في اليوم المقرر ذهبتُ إلى منزل الفتاة. حيث أدخلوني إلى غرفة تتوسط المنزل، تحيط بها بقية الغرف من كلِ الجهات.. أحسست أنني مراقب -نظرت حولي- مثلما توقعت تماماً.. عيون كثيرة تفتح وتغلق على الثقوب -وُزعت تلك العيون مثل حبات الخرز تترصدني، خجلت كثيراً، ورفعت نظري نحو الأعلى.. ماذا أجد؟ سقف الغرفة أيضاً مزروعاً بالعيون والنظرات الموجهة إليَّ مباشرة. تملكتني الحيرة، ماذا أفعل؟ وإلى أين أنظر؟ الجدران مليئة بصور مقصوصة من المجلات والجرائد لأحد لاعبي الكرة. بعضها لُصق وبعضها وضع داخل إطار زجاجي.

في إحدى الصور وقف اللاعب وقد أخذ الكرة تحت قدمه اليمنى كأنه يدوس على رأس عدوه، وفي صورة أخرى فتح رجليه كأنه سيطير لخطتها.. وأخرى.. وأخرى.

المهم دَخَلت الفتاة الغرفة، والحقيقة أنها جميلة وأنيقة وممتلئة وبما أنهم اشترطوا أن يدي لن تلمس يدها أبداً كنت أفكر بهذا الأمر. هل أمد يدي لأصافحها، فإذا هي تمد يدها نحوي مرحِّبة قائلةً: أهلاً بكم.. أهلاً وسهلاً..

ولكي لا أقع في إشكالات أنا في غنى عنها مددت لها رؤوس أصابعي وسحبتها مباشرة وقلت: أهلاً بك..

جلست في الجهة المقابلة لي.. والله أعلم كم عدد الذين يراقبوننا الآن من خلال ثقوب الجدران. ماذا أقول لها؟ أمام هذا الموقف ماتت الكلمات على لساني ولم أدرِ ماذا أفعل؟ لكن الفتاة تكلمت "ظهرت أقوى مني".

- لقد طلبتني لنجلس ونتناقش وجهاً لوجه.

نعم طلبتك، ولكن على انفراد.

كَما ترى إننا وحدنا..

فقلت وأنا أشير بإصبعي إلى العيون والنظرات التي تراقبنا: ألا تحبين هؤلاء البشر؟.

نهضت من مكانها ورفعت يدها وهزتها باتجاه الجدران كأنها تطرد الذباب.

اختفت تلك العيون في اللحظة التي أشارت فيها. ولكي أبدأ الحديث معها ثانية سألتها: وكأنني أغار عليها من الصور الموجودة في الغرفة فقلت:

- من هذا الشخص الذي ملأت صوره الجدران..

زمّتِ الفتاة شفتيها كأنها خجلت ثم قالت: هذه صوركم..

- ماذا؟!.. صوري ومن أين لك -أنا لم /أتصور/ أبداً بهذه الثياب.

- نعم هذه صوركم يا روحي.. قدري لاعب الكرة المشهور..

بهذه الكلمات، كأنها ضربتني على رأسي فقلت: بالله عليك لقد أخطأت. أنا شخصياً لا أفهم شيئاً عن الكرة ولاعبي الكرة، وبما أن هذه الصور ليست صوري فهذا الرجل لا يشبهني أيضاً.

قالت الفتاة وهي غير مصدِّقة: كيف لا يشبهك؟ إنها صورة طبق الأصل عنك، لا تنكر ذلك رجاءً، وهذه الصور هي لك -ها-.. وقتها فهمت أن الفتاة لا تستطيع تمييز الصورة عن الحقيقة فقلت لها: كنت قد خمنت أن هناك خطأً في الأمر لكنني لم أعرف ما هذا الخطأ، لكن الآن فهمت وعرفت.

- لست ذلك الإنسان الذي تبحثين عنه..

- وأي قدري أنت إذن؟".. أي قدري إنني لا أصدق أبداً.
- صدقي أو لا تصدقي، أنا قدري الساذج والبسيط جداً. إذا كنت تريدين الزواج مني فأهلاً بك، ولا تقولي إنه خدعني زاعماً بأنه لاعب الكرة قدري. ها آنذا أقول لك: أنا لست قدري لاعب الكرة، أنا إنسان بسيط جداً.. طلبت الانفراد بك لأقول لك ذلك، فإن كنت تريدين الزواج فأنا جاهز..

استودعكِ الله.. وخرجت من المنزل، وعندما أخبرت ابنة عمي بالذي جرى، غضبت كثيراً وقالت: (لقد وسخت كيس التبن بأكمله) أيها الأحمق!!.

- "شو صار يعني" -كانوا يحسبونني قدري لاعب الكرة فقلت لهم الحقيقة: إنني قدري البسيط جداً، وإذا كانت الفتاة تريدني فأهلاً وسهلاً.
- أنت لا تعرف أن تتكلم جيداً. ماذا يحصل لو قلت الحقيقة بعد أن تدخل عليها وتصبح زوجتك. وقتها قل لها ما تريد. قل لها إنني قدري الضائع البسيط الساذج..

تمسكْتَ بالصدق والحقيقة فماذا ربحت؟ انظر إلى طفلتيك الضعيفتين انظر إليهما جيداً، لقد أطعموهما وألبسوهما وفعلوا الكثير من أجلهما، حتى عادت الحياة والنضارة إلى وجهيهما، ولأنك قلت الحقيقة وعرفوا ذلك لم يرسلوا الحلويات والمرطبات صباح هذا اليوم..

- اتركي هذا الأمر لي سأعود إلى استنبول.
- اسكت.. (إنه يثرثر كثيراً) انظر إلى قليل العقل هذا. لا تتدخل في هذا الأمر، سأضعه مرة ثانية في الطريق الصحيح.

وبالرغم من رجائي لها. ذَهَبَت إلى بيت الفتاة وقالت لأهلها: لا تصدّقوا كلامه عندما قال لكم أنا لست قدري لاعب الكرة، بل قدري البسيط جداً، إنه يمتحن الفتاة بقوله: إذا كانت تريدني لاسمي أو لشخصي، فإن الاسم يزول ويبقى الإنسان في نهاية الأمر.

ابن خالي هذا إنسان متواضع جداً لا يستغل اسمه في أعماله وهذا هو الواقع، لأن من سيتزوج هو وليس اسمه. واستطاعت أن تُقنع أهلها بذلك وصدقوها وكل هذا دون علمي. عند العصر جاء إلى البيت ثلاثة شبان.

- يا قدري بك ما رأيك لو تذهب معنا إلى الملعب وتشاهد فريقنا عن كثب؟.
- لا أريد أن أذهب.. اغربوا عن وجهي. لست قدري الذي تعرفون.

يبدو أنهم صدقوا كلام ابنة عمتي الأخير حول تواضعي. قالوا لتكن قدري البسيط جداً نحن نقبلك هكذا بيننا.. هل من كلام آخر.

- /ولكْ يا أخي/ طيلة حياتي لم ألمس ذلك الشيء المدور - (الكرة) اتركوني كرمى لله.
- ها.. ها نحن نعرفك جيداً، إنك تقول ذلك تواضعاً.
- هل شاهدتم صور ذلك الإنسان في الجرائد وترونه كل يوم. خذوا صورهُ بأيديكم وقارنوا بين صوره وصوري. هل أشبهه؟.
- ما معنى تشبهه هذه.. طبق الأصل. ألا يشبه الإنسان صوره.

لو كان بيننا شبه واحد لما استغربت.. أنا قصير وهو طويل، أنا ضعيف وهو ممتلئ الجسم. شعري مسترسل وشعره أجعد وأنا أعرف كنيته!.

- أرترك.
- هل رأيتم. كنيته أرترك وكنيتي جنباز أوغلو.
- نعرف هذا أيضاً فهو يستعمل كنيته الأولى في اللعب وبين زملائه في الفريق..

أخذوني بلطف بعد أن تأبطوا ذراعي طالبين مني المجيء: هيا.. هيا -أيها الآغا.. وما إن وصلنا إلى المكان المسمى في الساحة /وهو عبارة عن ساحة ترابية واسعة/.

بدأ الناس المجتمعون هناك الهتاف بحياتي بصوت جهوري واحد. يعيش قدري بك.. يا.. يعيش قدري بك يا.. وكأن الجبال بدأت تهتف وتصرخ معهم وكل من سمع من أهل القرية هذا الهتاف ترك عمله وحضر إلى الملعب، فالذي أغلق دكانه والذي أقفل باب داره والذي..

- لقد وقعت في ورطة كبيرة جداً ويصعب على المرء أن يصفها. أخذوني وأجلسوني بأعلى المكان الذي كانوا يلعبون فيه وقالوا: راقب لاعبينا يا قدري بك.

المهم في الأمر أن اللاعبين تشابكوا فيما بينهم ضرباً ولكماً وعراكاً حتى أن الحكم لم ينجُ من ضرباتهم.. هرسوه بين أقدامهم فتدخل الجمهور وفرق الفريقين عن بعضهما وخلص الحكم منهما. وإذ بأحد الحضور يتدخل ويبدو أنه رئيس الفريق بدأ يصرخ باللاعبين قائلاً: ألا تخجلون من أنفسكم!! كيف تتشاجرون وتعترضون على قرار الحكم وأمام قدري بك.. كيف حصل ذلك أيها الحمقى؟.

بعض المتشاجرين من اللاعبين قالوا: ليحكم قدري بك.. ليعرف من كان على حق ومن كان على خطأ، فنحن راضون بحكمه.

يا للمصيبة!! وقتها قلت لهم: فهموني ما هو الخلاف القائم بينكم وما هو الشيء الذي لا تستطيعون حله، فقالوا ألم تشاهد ما حصل يا بك.

في ذلك الوقت كنت غارقاً في التفكير لم أرَ الخلاف الحاصل بينكم.. هيا باشروا بالعراك والمشاحنة ثانية كما حصل كي أستطيع أن أحكم بينكم.

- سنوضح لك الأمر، فريق يقول سجلنا هدفاً والآخر يقول إنه (أوفسايد) تسلل.

كوفسايت أو موفسايت.. من يكن هذا إنه زميلكم لا تتشاجروا كلكم أبناء وطن واحد - جميعكم إخوة وهذا عيب، عندها هتفوا بحياتي ثانية وقال رئيس الفريق:

-لتكن أنت الحكم بالله عليك يا قدري بك. وضع الصفارة في يدي ومهما حاولت التخلص من هذه الورطة الجديدة فإنني لن أستطيع.

لا أحد يفهم ويعرف ما يدور في رأسي الثاني، إنهم يفكرون حسب أهوائهم وأنا أفكر بالورطة التي وقعت فيها. هم لا يعرفون أن سروالي الداخلي هو عبارة عن سروال قديم وطويل مصنوع من قماش أمريكي خفيف، وعندما سأخلع بنطالي سيكون الأمر مضحكاً جداً...

بصعوبة كبيرة تخلصت منهم وعدت إلى البيت، فرأيت ابنتي تلعبان بعرائس حجرية جديدة أرسلتها المحروسة (خطيبتي).

الآن أستطيع أن أعود إلى استنبول بكل سهولة ولكن بالتأكيد ستزعل ابنة عمتي ولن تعتني بالطفلتين، وسترسلهما إليَّ، وقتها كيف سأعيش وكيف سأعمل..

إنه أمر معقد من كافة جوانبه.

– المهم ثانية /بيت حماي/ فقد دعوني إلى طعام العشاء ولبيت الدعوة وبينما نحن نأكل، قال حماي: -كيف وجدت فريقنا؟.

– ما شاء ا لله إنه فريق ممتاز.

– وهل ستدربه؟ دربه حتى يصل إلى مستوى فريق (جاي اسبور) لنتغلب عليه.

– قلت: إنشاء ا لله سأضع برنامجاً لذلك.

في اليوم الثاني وقت الظهيرة جاء إلى البيت عدة شبان، قال أحدهم: اليوم لدينا تدريب يا قدري بك (انترمان).

قلت في نفسي ما هذا الانترمان الذي خرجوا به الآن؟ ماذا يقصد بالانترمان. كلمة أجنبية، لم أفهم معناها، ولكي لا يعرفوا أنني لم أفهمها بدأت ألف وأدور بالكلام قائلاً: إذاً هكذا (هذا يوجد أيضاً أليس كذلك): ماذا سيحصل إذاً؟

– رجاءً يا قدري بك -نرجوا أن تتواجد أثناء التدريب أو الانترمان..

تأبطوا ذراعي وحملوني حتى أنني لم أستطع أن ألبس حذائي إلا بصعوبة بالغة ووصلنا إلى مكان اللعب. وضعوا في يدي بعض الألبسة قائلين: ألبس هذه الأشياء.. عندها قلت: وا لله العظيم لا أستطيع أن ألعب يا رفاق لا تفعلوا بي ذلك.

حاولت أن أشرح لهم الموقف، غير أن أحداً لم يكن يسمعني وعلى العكس تماماً ارتفعت بعض الأصوات قائلة:

– طبعاً.. طبعاً قدري بك لا يستطيع أن يلعب مع هؤلاء اللاعبين، معلوم يا أخي هو بحاجة إلى لاعبين من مستواه كي يلعب.

عندما يئست من الهروب من بين أيديهم، أخذت الكنزة والشورت واتجهت إلى مكان الدوش، غيرتها مباشرة وبسرعة عجيبة كي لا يرى أحد سروالي الداخلي الطويل تحت البنطلون وأصبح سخرية لهم..

المهم تخلصت من السروال الطويل ولبست السروال الرياضي القصير. لكن كيف سأخرج أمام الناس هكذا.. فأنا لم أعتد على الظهور بهذا الشكل. ساقاي مكشوفتان عاريتان.. في حياتي كلها لم أظهر فيها هكذا أمام الناس..

خرجت وبدأ الهواء ينفخ ويضرب ساقي صاعداً نحو الأعلى من جسمي، فظننت أنني عارٍ تماماً، كما أن الحذاء الذي أعطوني كبير جداً لم ألبسه. مشيت حافياً إلى الساحة /مكان التدريب/.

– الانترمان سيبدأ.. الانترمان سيبدأ، كلام من هنا وهتاف من هناك.. دو.. دو..

– أين تريد أن تلعب يا قدري بك في خط الوسط أم في خط الهجوم؟..

– يا ا لله ما هذه الورطة التي وقعت فيها، قلت ذلك في نفسي ولكي لا يفهموا أنني لم أعِ ما قالوه قلت لهم بلا مبالاة لا تتعبوا من أجلي أنا ألعب في أي مكان.

ما إن صفر الحكم أو الحاكم لا أدري ما اسمه حتى بدأت الكرة تنتقل من هذا إلى ذاك، ومن هنا إلى هناك وكأنها عصفور طائر بلا أجنحة ويا لها من كرة حقيرة. إنها تتوضع أمام كل الأقدام فتضربها إلا أنها لا تتوضع أمام قدمي كي أضربها مثل الباقون، ومع كل جريي وحركاتي وركضي خلفها فإنها لم تأتِ إلى قدمي، تعبت جداً من كثرة الجري.. وضاقت أنفاسي. قلت في نفسي: هكذا يكفي لأخرج من

الساحة ولكن أليس من العيب أن أخرج هكذا قبل أن تمس الكرة قدمي، ماذا سيقول الناس عنك؟ وانتظرت بعدها على أمل أن أضرب الكرة مرة واحدة وأخرج بعدها.

في هذا الوقت ولسبب لم أفهمه أوقف الحكم اللعب ووضع الكرة في الوسط، وكالذين يدعون الناس على الطعام دعاني اللاعبون قائلين: تفضل يا قدري بك.

الحقيقة ظننت أنهم أوقفوا اللعب من أجلي ربما لاحظوا لأنني لم أضرب الكرة أبداً ولهذا أشفقوا عليّ أو كي لا أزعل من عدم ضربي لها لذا وضعوها في الوسط.

قلت: ماذا سيحصل الآن؟!..

تراجع الجميع إلى الخلف والشيء الوحيد الذي فهمته من تراجعهم هذا هو أنني لاعب كرة مشهور، فقد تراجعوا للخلف ليلاحظوا كيفية ضربي للكرة ويتعلموا طريقة جديدة في فن الضرب.

قلت في نفسي: يا الله لا تخجلني أمامهم، تراجعت قليلاً إلى الوراء وانطلقت بسرعة ومددت قدمي لأضرب الكرة، فتدحرجت تحت قدمي فوقعت شكاً على رأسي وبقوة فظيعة. يا ربي ما هذا الذي أنا فيه والباقون يضربون الكرة بسهولة وأنا ملقى على الأرض أمسح مكان الألم. بدأ الباقون اللعب وكأن شيئاً لم يكن.. وضعت يدي على ظهري أريد الوقوف على قدميّ قائلاً في نفسي: يجب أن أخرج من هذه الورطة في الحال وفي الوقت الذي صرت فيه على أربع أحاول الوقوف وإذ بشيء قوي يصطدم بي بشدة ويلقيني ثانية على رأسي. تمرغ وجهي بالتراب وتألمت كثيراً ورحت أسبُّ وأشتم.. وإذ باللاعبين

يحملوني على أكتافهم ويهتفون بحياتي عاش قدري بك.. عاش قدري بك.

- قلت ماذا حدث؟.

- لقد سجلت هدفاً يا قدري بك..

- كيف حصل ذلك؟..

المهم.. بينما كنت أحاول الوقوف على رجلي مسنداً ظهري على المرمى. كانت الكرة التي انتظرتها طويلاً لتلمس قدمي. لقد جاءت في تلك اللحظة التي كنت أحاول الوقوف فيها، فاصطدمت بساقي ودخلت المرمى.

- إيه لقد سجلنا الهدف بإذن الله والآن أستأذنكم فهذا يكفي..

تركوني كي لا أتعب أكثر فقالوا لندع قدري بك يرتاح..

- كنت أحسب أنني ركضت أكثر من ساعتين أو ثلاث، لكن اتضح لي أن مجموع ما بقيت في الملعب خمس أو عشر دقائق.

بعد هذا اللعب القصير بالكرة ذاع صيتي في القرية وكثرت الأقاويل.

- لاعب مشهور وكبير مثله يتنازل ويلعب مع فريق محلي صغير، وبما أنه لا يريد اللعب فقد حاول جاهداً ألا تمس الكرة قدمه و لم يسجل ضربة الجزاء خصيصاً إذ أراد أن يقول لنا في تسجيله الهدف، أنا لا أتنازل أن أسجل الهدف بقدمي بل أسجله بساقي، حتى والد الفتاة طلب أن تتم الخطبة والدخلة بالسرعة القصوى، وتمسك بقراره بقوة، فقلت لابنة عمتي ما رأيك أن أذهب إلى استنبول يومين أو ثلاثة وأعود بعدها لأنني أخشى أن يطردني المدير من عملي.. ولكي لا أقع في

إشكال وأبقى دون عمل.. يجب عليَّ أن أخبره بأنني سأتزوج ثم آخذ إجازة منه وعندما أعود نقيم الخطبة والعرس معاً.

لكن /قلت في نفسي/ بمجرد وصولي إلى استنبول لن أفكر بالعودة إلى هنا مطلقاً.

– ماذا تقول أيها الأحمق؟ بعد أن تتزوج هذه الفتاة لماذا العمل؟. يدك ستكون في العسل والأخرى في السمن، يعني أنك لن تحتاج إلى العمل أبداً.

– هذا لن يكون أبداً، يجب أن أذهب إلى استنبول وأعود -ودون أن أعلم -ذَهَبت إلى الرجل الذي سيكون حماي وحَكَت له قصة ذهابي إلى استنبول بعدها قال الرجل لها:

– الأحد القادم لنا مباراة مهمة مع نادي (جاي اسبور) فإذا ما لعب قدري مع فريقنا حتماً سنفوز عليهم، وفي المساء نعيش الفرحتين، فرحة الفوز وفرحة الخطبة، وليذهب بعدها إلى استانبول، وعندما يعود نقوم بتحضيرات العرس والدخلة، فشبابنا أخذوا وعداً من فريق (جاي اسبور) واتفقوا على اللقاء الكبير بينهما. هيا تعال يا قدري بك درب فريقنا حتى نفوز على ذلك الفريق وتبيض (وجوهنا).

الجميع أصر /أنْ أدرب فريقنا/ كي نفوز على فريق (جاي اسبور). وأنا أقسم اليمين با لله راجياً إياهم يا عالم يا هو لست قدري لاعب الكرة.. أنا قدري البسيط. البسيط جداً..

آه لو علمتم بحالي لأشفقتم عليَّ . لم يصدقني أحد..

– لا تتعب نفسك بإخفاء شخصيتك نحن نعرفك جيداً، أنت قدري لاعب الكرة المشهور.

حاولت الابتعاد عنهم بتبريرات واهية ساذجة.. أنا مريض.. أنا متعب.. أنا كذا.. الخ. حتى جاء يوم المباراة.

من جهة ثانية فقد كانت تحضيرات الخطبة قائمة على قدم وساق. هرعت من البيت عند شروق الشمس غايتي الهروب إلى الجبال والعودة مساءً إلى البيت. ولكن (حساب السوق لم يطابق الصندوق).

لحظة خروجي من الباب أحاط الجماعة بي قائلين:

تفضل إلى النادي يا قدري بك..

الأنذال.. كأنهم نصبوا فخاً لي.. وصلنا إلى النادي ويا لهول ما رأيت كأنه إعلان سفر برلك(١٩١٤ -مسيرة ستة وثلاثين طابوراً) جميع أهل القرية يملأون النادي والشوارع والأزقة، حضروا قبل شروق الشمس حتى القائم مقام ذاته موجود في النادي، تصوروا أن السيد القائم مقام صافحني وشد على يدي بحرارة قائلاً:

- اعتمادنا على ا لله وعليك يا ابني يا قدري بك.

– قلت: ماذا حصل؟..

– إذا لعبت مع فريقنا ضد الفريق الثاني بالتأكيد ستتغلب عليهم.

– أنتم أيضاً صدقتم هذا الكذب أيها السيد المحترم.

– كل المشاهير عندهم عقدة الخجل أدري لماذا؟.

– المهم من أجل خاطري أريدك أن تأخذ مكانك في الفريق..

تكلم رئيس النادي: لقد وضعناك في (السنترفور) وأرجو أن تأخذ مكانك، ربما أنني أحسب أن مكان (السنترفور) هو مكان يجلسون فيه لمراقبة المباراة (كالبلكون في السينما)، فقد قلت لهم بسرور:

– شكراً لكم .. ليكن سآخذ مكاني..

في الوقت الذي بدأ فيه رئيس الفريق الصراخ بأعلى صوته: أزفُّ لكم هذه البشرى. لقد وافق قدري بك على أخذ مكان السنترفور..
بدأ الآخرون الهتاف بحياتي: "يا يا يا.. تشا تشا تشا .. ليعيش قدري بك يا".

جاء وقت الظهر.. الناس يتوافدون من القرى والنواحي المجاورة فالجميع سمع بشهرتي ثم ذهبنا جميعاً لاستقبال فريق (جاي اسبور) وانتقلنا إلى فندق البلدية الكبير لتناول طعام الغداء.

كان الطعام جيداً ولذيذاً، أكلت منه ما لذّ وطاب لي، ثمة شبان كانوا يتحدثون خلفي، قال أحدهم: لقد أكل قدري بك وسيسمن في وقت قريب وقال آخر قبل مباراة قوية كهذه يجب أن لا يأكل الإنسان بهذه الشراهة.

ولماذا لا آكل لأن العيد يأتي مرة في العام، أنزلت فخذ الوز مباشرة وبعدها أنزلت صحناً من البرغل المطبوخ بالسمن البلدي وتلاها بضع قطع من القطايف.. كلها أنزلتها إلى معدتي بحيث أصبح لا حول لي ولا قوة. قبل أن أتحرك من مكاني -وفور انتقالنا معاً إلى النادي -وبعد أن شربت فنجاناً من القهوة اعتراني خدر لذيذ.. شعرت بالاسترخاء وتمددت على الكنبة ورحت أغط في نوم عميق، ورأسي ينخفض ويرتفع على صدري -بين وقت وآخر.

أيقظوني بلمسات خفيفة.

- هيا إلى الساحة يا قدري بك، فقد أصبحت الساعة الثالثة.
- قلت: ماذا؟...
- قالوا ستبدأ المباراة.

- قلت: حسناً ولكن أروني مكاني في (السنترفور)/ لأنهم أخلوه من أجلي.

قالوا وهم يضحكون: حسناً لتتفضل أولاً إلى غرفة تغيير الملابس وبعدها.. كلهم كانوا يغيرون ملابسهم.. جاء رئيس النادي.

- هذه ثيابك (نمرتك -فورمن) يا قدري بك.
- لا تفعلوا ذلك يا أخوان. با لله عليكم دعوني وشأني.
- هذا لا يجوز أبداً.. أن يظل مكانك خالياً في الفريق..

أما إذا كنت لا تحب اللعب (بالسنترفور) فالعب (بالهافتيم)..

بدأوا بخلع ثيابي كأنهم يقشرون تفاحة.. قلت في نفسي: ولعب الهافتيم ذاك كيف شكله يا ترى؟ هل هو مثل لعب الورق أم ماذا؟..

لا أنكر أنني شاهدت بعض المباريات من بعيد غير أنني لم أشاهد لعب (الهافتيم) أبداً.

- لا أستطيع اللعب..

العب الهافتيم إذاً..

- لو كنت أعرف لعب الهافتيم. لكنت لعبت بدل اليد الواحدة بخمسة أيدٍ، نزعوا عني قميصي وبنطالي متعاونين.. وعندما ظهر السروال الداخلي الطويل المصنوع من التفته الأمريكية.. قال رئيس النادي: إنه بحاجة إلى سروال قصير تحت الشورت الرياضي. من يدري ربما تمزق الشورت الرياضي، فيظل السروال الداخلي، وبما أن وقت المباراة قد حان .. ولعدم تمكنهم من إيجاد سروال قصير ألبسه تحت الشورت فقد لبسته مباشرة على الجسد كان الفريق الثاني قد خرج إلى الساحة والحكم ينتظر فريقنا، والمصيبة الثانية هي أن الحذاء الذي أُعطيت، كان واسعاً جداً على قدمي.. حيث أنها كانت تلف وتدور

داخل الحذاء لأن مقاس قدمي (٣٨) والحذاء كان مقاسه (٤٤)،
وضعوا الكرة تحت إبطي وأوقفوني أمام الفريق وخرجنا إلى الساحة،
وفور خروجنا تعالت الهتافات لنا وصدى الأصوات المتعالية يتردد في
الأجواء عالياً، ودون توقف صافحت رئيس الفريق الثاني..

أهل القرية أطفالاً وشيوخاً ونساءً حضروا لمشاهدة المباراة..

وفي الجهة المقابلة تماماً ماذا أرى؟.. يا ربي -بيت حماي.. من
الصغير إلى الكبير، الجميع أتى إلى هنا.. والفتاة التي سأخطبها أيضاً
موجودة.

قلت لنفسي كيلا أكون مضحكة أمام خطيبتي وعائلتها، يجب علي
أن أركض خلف الكرة مهما كلفني ذلك من جهد.

وبما أنني لا أعرف مكان وقوفي فقد بقيت ألفّ وأدور هنا وهناك،
أحد اللاعبين شدني من يدي نحوه قائلاً: يا قدري بك مرمانا في هذه
الجهة، بدأ اللعب مع صفارة الحكم وبدأت الكرة تنقاد تحت الأقدام،
كان هدفي الجري خلف الكرة قلت: يا الله.. بسم الله وركضت
خلفها بسرعة.. ومع ركضي خلف الكرة هتف الجمهور: عاش قدري
بك بصوت واحد قوي..

يا الله كم أعطاني هذا التشجيع من القوة والاندفاع فتقدمت
كالأسد الغضنفر صعب على المرء أن يسيطر علي بصعوبة، ولكن
اللاعبين أولاد الكلاب كانوا ينقلون الكرة كالسحرة من قدم إلى
أخرى بحيث بدأت ألف بينهم من جهة إلى أخرى كالمجنون.

ابتعدت الكرة عني ورأسي بدأ يدور ويدور، وبت لا أرى حتى
نزلت على الأرض مكوماً بينما غرق المشاهدون بالضحك..

كنت أفكر بالفتاة التي سأتزوجها، هل رأت يا ترى حماقتي هذه..

جالت نظري في كل الاتجاهات أبحث عنها ماذا رأيت..

لقد أصبحت الغيوم والأشجار والناس قطعة واحدة، والسماء
تندفع صوبي بسرعة وأنا متمدد فوق التراب، والأرض تدور وتدور..
وكلما حاولت الوقوف سقطت على الأرض ثانية وثالثة.. ورابعة..

لا أستطيع الحراك، بقيت مستلقياً والأرض تدور.. إلى أن جاء عدة
أشخاص وحملوني من يدي ورجلي ونقلوني إلى غرفة ومددوني، ثم
جاء الطبيب وعاينني ثم فحص كل جسمي وقال: سبب ذلك كثرة
الأكل الذي تناولته إنه كلام معقول وصحيح.. المعذرة لأنني أحس
بغثيان فظيع.. سأتقيأ كل ما في معدتي.. حاولت التقيأ لكنني لم
أستطع.. كنت أنتظر الموت في كل ثانية.

جاء رئيس النادي وأوقفني على رجلي وطلب مني أن أعود إلى
الملعب.

- دعني أرجوك.. إنني سأقع.
- ليس هناك مجال للانتظار يا قدري بك، لقد سجلوا في مرمانا
هدفين..
- أنا الذي أرجوك.. هيا بالله عليك -حتى نعوض الخسارة.

قال ذلك وهو يشدني من يدي شداً حتى أخرجني إلى الساحة.
فور ظهوري فيها خرجت الهتافات المدوية ثانية بشكل منقطع النظير..
إن أكبر رجل في حكومتنا لم يستقبل هذا الاستقبال ويقابل بهذا الهتاف
المدوي.. هل تصدقون إن قلت لكم إنني عندما سمعت الهتافات وهذا
الاستقبال أعادني الله إلى ربيع شبابي وقوتي، فاندفعت بقوة كأنني لا
أعاني شيئاً أبداً.

آه لو رأيتموني يا رفاق كيف كنت أجري كالحصان العربي الأصيل ألقي بنفسي من قدم هذا إلى قدم ذاك، كي تلمس قدمي الكرة حيث أصبحت على وشك الاختفاء تحت التراب.. تحت الأقدام من شدة تعبي وجهدي، وعند وصول الكرة إلى أحد لاعبي فريقنا أرسل الكرة نحوي كي أسجل هدفاً لكنها مرت من بين ساقي قوية كعاصفة قبل أن أمسها، غريب أمر هذه الكرة الحقيرة تذهب في كل الاتجاهات وتلمس كل الأقدام ولكنها مع الأسف الشديد يا سيدي لا تأتي إلى قدمي وتلمسها أبداً. أنا الآخر ركبني العناد فلن أتركها أبداً، سأجري وراءها وعندما أمسكها سأمزقها بأسناني، سأرميها بالمسدس (قليلة الأدب هل أنا عدوك لهذه الدرجة)، ولكثرة ما قذفت نفسي من مكان إلى مكان وتدحرجت على الأرض، لم يبق في جسدي مكاناً خال من الجروح كنت لا أعرف نحو أية جهة سأركض وأنا في هذه الحالة من الدهشة والغضب، إذ بضربة قوية تأتيني من خلف رأسي كأنها طلق ناري، وضعت يدي مكان الصدمة فوجدت الدم يخرج من رأسي كالماء الخارج من خراطيم المياه المستعملة في حديقة البلدية، نقلوني كالسلحفاة خارج الملعب وصل الطبيب ووضع على جرحي قطعة قطن كبيرة ودهنه ببعض المراهم، غير أن الدم لم ينقطع قال الطبيب: يجب أن ينقل إلى مشفى الولاية وبسرعة..

العناد والسرعة لم يتركاني فالجميع لم يستطيعوا السيطرة على اندفاعي وعنادي، يجب أن ألعب بتلك الكرة وأسجل هدفاً مهما كلف الأمر، لكن عندما شاهدت الدم النازل من رأسي صرخت لا أريد الذهاب إلى المشفى.. اتركوني.

قلت ذلك وأنا أقفز من مكان إلى آخر حتى وصلت إلى الملعب. ثار الجمهور كثيراً عندما شاهدوني على هذا الحال -رأسي معصوب بشاش أبيض مضرج بالدماء كأنني قادم من حرب البلقان، بدأ الهتاف بحياتي ثانية وبشكل عنيف بحيث يصعب على المرء وصفه بينما كنت أنظر حولي أبحث عن مكان الكرة.. نعم هذه الكرة اللعينة المسيطرة عليّ والتي بقيت بعيدة عني جاءت هذه المرة كالقنبلة واصطدمت برأسي مكان الجرح تماماً حيث تفجرت الدماء ثانية وصبغت كل جسمي لكن لم أتركها أبداً بل ركضت وراءها ولحقت بها.. وقتها كنا أربعة حولها تداخلنا فيما بيننا وتَبِعَنا الآخرون تكومنا فوق بعض نتضارب ولا أحد يدري من يضرب الآخر والجمهور يهتف اضرب.. اضرب.. وبدأ الجمهور قذفنا بالحجارة والعصي والزجاجات الفارغة.. والحمد لله كنت تحت اللاعبين لقلة حيلي وكثرة ما نزف مني من دماء. وقد كان هذا الوضع لمصلحتي لأن الموجودين فوقنا نالوا الكثير من الضرب والسباب.

يا بوليس.. يا عسكر.. يا جندرمة.. الحقوا. عند سماع اللاعبين لهذه الكلمات انسحبوا من فوقنا وكل لاعب هرب في جهة، والمصيبة الأكبر جاءت بعد ذلك كما توقعنا تماماً.. كيف سأفسر لكم ذلك: أثناء الاشتباك الذي جرى بيننا سحب أحدهم الشورت اليتيم الذي كان يستر عورتي أو ربما تمزق فتقطعت أشلاؤه أثناء العراك بقيت عارياً لا يستر عورتي شيء. اللاعبون الآخرون فروا وتمكنوا من الخلاص، بينما أنا وقفت عارياً. ولأنني دون سروال أو شورت بقيت منبطحاً على الأرض لا أدري ماذا أفعل، كل الذين كانوا يهتفون بحياتي قبل قليل أطلقوا قهقهاتها العالية التي تملأ الأرض، والسماء كأنها رعود

تهز الأبدان، وبإحدى يدي سترت أمامي وبالأخرى سترت خلفي والضحكات تزداد ماذا أفعل يا رب؟ هل أمشي هكذا؟ الناس ستراني. أفضل شيء هو أن أنبطح على الأرض لأستر أمامي على الأقل وفعلت هذا ورفعت رأسي عن الأرض وصرخت: يا عالم.. يا ناس.. يا هو.. يا قليلي الإيمان والدين.. بدلاً من أن تضحكوا عليّ، حاولوا تغطيتي بقطعة (جنفاص) أو قطعة قماش على الأقل.. وأنا أصرخ بأعلى صوتي.. ماذا أرى؟ يا إلهي -وقع بصري على الفتاة التي سأتزوجها.. كانت تضحك وتضحك حتى الإغماء ووالدها الذي سيكون حماي جالس قربها وقد احمر وجهه وهو يصرخ في وجه ابنته قائلاً: على ماذا تضحكين؟.. تفوه ما هذه الرزالة؟..

قمت عن الأرض وجريت.. وأنا أركض حاولت أن أسحب القميص (الفانيلا) إلى أسفلي، لكن دون فائدة، /لأنه لا يغطي إلا ظهري/ انظروا لقلة حظي، الحذاء الرياضي كبير على قدمي والفانيلا التي ألبسها قصيرة علي. حظي تعيس هكذا دائماً، والمشاهدون يضحكون ويضربون أيديهم ببعض، يضحكون ويجلسون ويقفون ويضحكون ثم يفرطون في الضحك..

- يا عالم يا هو..في حياتكم لم تروا شخصاً عارياً مثلي؟ .. ما هو الشيء المضحك في نظركم؟ كلما أصرخ في وجوههم ازدادت ضحكاتهم.. وأنا أجري يدي اليمنى أمامي واليسرى خلفي.. يجب أن أخرج من هذا الملعب حالاً.. ولكن أين يا ربي باب الملعب.. ضاع الباب... وضعت أنا.. جريت في كل الاتجاهات، لم أجد باب الملعب.. وأنا على هذه الحال، أجري من هنا وهناك، والجمهور يردد

-ما شاء الله- ما شاء الله- والباب ضائع.. ولم أفهم لماذا يرددون -ما شاء الله-.

- أين أنت يا عزرائيل.. تعال خذ روحي وخلصني من هذه المحنة...!.

لا أدري خمسة أو عشرة آلاف من المشاهدين كلهم يرددون ما شاء الله وفي كل مرة أرتبك وأقع على الأرض، ومن كثرة شدة بالقميص.. تقطع وتمزّق، وكان هذا من حسن حظي لأنني لففته على خصري كمنشفة الحمام الحمد لله -الشكر لك يا رب، وجدت الباب وخرجت من الملعب إلى الزقاق، لكن لم أتخلص من المصيبة، لحق بي كثيرون وهم يصرخون، يووو، أنا أهرب وهم يطاردونني، كلما قلت لهم أعطوني ألبستي يصرخون هيا.. اركض.. اركض..

ضقت ذرعاً بهم وهم يسخرون مني، عندما خرجت من القرية عاد الناس إلى بيوتهم وتراجعوا عن مطاردتي.

جلست على الأرض ورحت أبكي وإذا بالرجل الذي سيكون حماي ومعه شخصان وقفوا فوق رأسي.. حماي هذا لبطني على ظهري العاري وهو يقول:

- أيها الأحمق كنت تقول إنك قدري..

- والله العظيم.. بالله العظيم.. أنا قدري.

مدّ مذياعه الصغير إلى وجهي وقال: اسمع إذن..؟.

إن الصوت في المذياع يردد: قدري ينزل نحو المرمى.. قدري يقترب من الهدف.. الثالث قدري .. قدري..

والقصة.. بينما كنت منبطحاً على أرض الملعب كـان المذيـاع قـد بدأ بنقل المباراة على الهواء مباشرة.. عندها عرف الجميـع أنـي لم أكـن ذلك القدري المشهور، أحد الواقفين فوق رأسي سألني:

-إذا كنت قدري فمن يكن هذا..؟.

– أرجوكم يا ناس، أليس في الدنيـا إلا قـدري واحـد، هـو قـدري لاعب الكرة المشهور، وأنا قدري البسيط.. هكذا..؟.

بصقـوا في وجهـي، لم أعـد أذكـر أيـن وقعـت البصقـات آنـذاك.. وذهبوا.. وقعت على الأرض مغمياً علي وبعد فـترة قصيرة أفقـت مـن غيبوبتي وبدأت أفكر بالذي سأفعله بعد الآن.. قلت في نفسي: بعـد أن يخيّم الظلام، أذهب إلى بيت ابنة عمتي سـراً، وآخـذ ثيابـاً كيفمـا اتفـق وأهرب من هذه القرية..

عندما حل الظلام، نزلت إلى الطريق رويداً.. رويداً وعنـد وصـولي ظهرت سيارة قريبة اتجهت نحوي وأضواؤها الأمامية مسلّطة على تماماً. قذفت نفسي إلى الخندق الموجود على جانب الطريق ريثما تمـرّ السـيارة لكنها وقفت بجانبي، فتح البـاب ونـزل منـه شـخص أعرفـه.. إنهـا ابنـة عمتي الحقيرة.. أنزلت طفلتيّ وقذفت ثيـابي الـتي كنـت ألبسـها قبـل أن أنزل إلى الملعب، ثم ركبت السـيارة وعـادت إلى القريـة، لبسـت ثيـابي على عجل في الخندق، أما الطفلتان فكانت في حالة يرثى لهـا أمسـكت إحداهما بيد والأخرى باليد الأخرى، سرنا دون أن ننظر إلى الوراء.

*   *   *

كيف تم إغلاق صحيفة يومية

في بلدنا.. ((لا! هذه البداية ليست جيدة)).. بلدنا.. ((هـذه أيضاً ليست جيدة)) كل كتابة تبدأ بكلمات متشابهة نهايتها وخيمة، وتجلب المشاكل لكتابها.

في تركيا.. ((ولك يا أخي أبدأ بالكتابة جيـداً)). أحـاول أن أقص شيئاً من تـاريخ حيـاتي الصحفيـة، إلا أنـني لا أسـتطيع الدخـول إلى الموضوع بالشكل المرغوب في وقت من الأوقات. (ها.. هكذا ستتعلم فن الكتابة إذا طال عمرك)، نعم في وقت من الأوقـات، فـالجريدة الـتي كنت أعمل بها أغلقت. (عفارم) إذا قلتُ أغلقت لايعرفُ من الـذي أغلقها، إذ يبقى الفاعل مجهولاً ومنسياً.

كانت الجريدة قد أغلقت بسبب خطأ، وهذا الخطأ لابد أن يدخـل تاريخ صحافتنا، ولهذا السبب فأنا أحاول أن أشرح أو أوضح هذا الخطأ الذي أصبح وثيقة في تـاريخ صحافتنـا. ومـن المؤكـد أنكـم سمعتم عـن الخطأين اللذين وقعا بعد إعلان جمهوريتنا (في صحافتنا)، وأولهمـا وقـع في الصفحة الأولى للجريدة عندما نشرتْ صورتان كبيرتان.

الصورة الأولى لمجموعة مـن الأبقـار الـتي فـازت بمسابقة جـرت في إحدى القرى. وقد ظهرت الميداليات متدلية من رقابها.

أما الصـورة الثانيـة، فهـي لمجموعـة مـن كبـار رجـالات الدولـة في المطار، قبل سفرهم في مهمة استطلاعية إلى أوروبـا لأمـر مـن الأمـور، تحت هاتين الصورتين جاءت الكتابة معكوسة على الشكل التالي: تحت الصورة التي يظهر فيها رجالات الدولة إلى جانب الطائرة. والتي قُصّت طولياً - الكتابة التالية: تظهر في هذه الصورة الـتي تشـاهدونها مجموعـة من الأبقار التي فازت بإدرار الحليب والتسـمين والـتي جـرت في القريـة

الفلانية، وكما تشاهدون أن المكافآت تـوزع علـى أصحـاب الأبقـار.

وتحت الصورة التي ظهرت فيها الأبقار: كتب هذه الكلمـات: في هـذه الصورة المجموعة الجاهزة للانطلاق في المهمة الاستطلاعية الهامة لحياتنا.

بين وقت وآخر تظهر مثل هذه الأخطاء في صحفنا. إلا أن تداخـل الجنة بالأبقار لم يظهر إلا مرتين، والخطأ الذي سأوضحه لكم لم تتدخل فيه أية بقرة.

الخطأ الأول الذي وقعتُ فيه في بداية حياتي الصحفية لم يكن مهماً بهذه الدرجة، كـأي شـاب طمـوح يمتلـك رغبـة كبيرة للعمـل، أقـول دائماً: أنا أقوم به. في إحـدى الأمسـيات نـاداني رئيـس التحريـر، وهـو اليـوم عضـو في مجلس الشـعب - قـال: أنـا مدعـوّ هـذه الليلـة لحفـل موسيقي، لكنني لن أستطيع الذهاب. والحفل يحتاج إلى تغطيـة صحفيـة وتقييم.

فأنت تردد دائماً (إنني أستطيع أن أقوم بكل شيء) فهل تستطيع أن تغطي هذا الحفل وتكتب شيئاً عنه؟.. فأنا مثل ذلك الرجل الـذي نـاداه معلمه وسأله:

هل تستطيع الإعتناء بطفلي ريثمـا تعـود والدتـه؟ قلـت: أعتـني بـه وبأمه أيضاً!.

وقتها قلت: وما الصعوبة في الكتابة عن حفل موسيقي، مع أنـني لا أميّز بـين - الـدو - والسـي - وأخلـط بـين (الفيلـون) و (الفيـولا) و (الفيولونسيل). نعم سوف أذهب إلى الحفـل وأكتـب كـل شـيء عنـه، هكـذا ودون معرفـة، كنـت أحسـب أنـي أسـتطيع كتابـة المقـال دون الذهاب إلى الحفل، لأنـي آنـذاك أعمـل في الجريـدة ليـلاً، ويجـب علـي التواجد فيها عند بدء الحفل الموسيقي.

في تلك الأوقات كان عدد الصحفيين- في كل جريدة - لا يتجاوز خمسة عشر صحفياً، أما الآن فيعمل في مجال الرياضة فقط أكثر من هذا العدد.

ناولني رئيس التحرير برنامج الحفل قائلاً: انظر إلى هذا واقرأه جيداً واكتب شيئاً حسب ما جاء فيه، ربما أستطيع أن أكتب شيئاً، لكن لم أفهم كلمة واحدة من البرنامج (كونشرتو - اللجيرو - أوبوس - دومينور - صولو تشايكوفسكي) وكلمات أخرى لم أفهم منها شيئاً قلت: يا الله.. بسم الله واندمجت في الكتابة.

كان الحفل آخاذاً فوق العادة، وبشكل غير معقول بحيث يصعب وصفه. ياربي ما هذه الموسيقا الإلهية - المرأة التي تعزف على البيانو رائعة.. العجب العجب!!.. إذن هكذا يعزف على البيانو.. يقال إن الموسيقا غذاء للروح لم أكن أصدق ذلك ولكن شاهدت حفل الأمس وأخذت غذائي الروحي، صدقت تلك المقولة...

المستمعون في حالة ارتخاء تام.. في تلك الأيام لم تكن الجرائد تولي اهتمامها للأخبار الخارجية كما هي عليه اليوم، لأن علاقتنا لم تكن وثيقة مع أمريكا وبالأحرى لم تكن لدينا مصادر إخبارية موثوقة من الخارج. حتى الأخبار المحلية لم تكن تضع النقاط على الحروف إلا ما ندر.. أما ملاحقة الأخبار الموسيقية والاجتماعات الدائرية كانت تحظى بالاهتمام الزائد.. والمقال الذي كتبته عن الحفل أعطاني شهرة كبيرة في الجريدة ومجال عمل أوسع. وهي الخطوة الأولى الناجحة في حياتي الصحفية، ولأن جريدتنا كانت رائدة في هذا المجال فقد سبقت كل الجرائد المحلية الأخرى في نشر وقائع الحفل. أما بقية الجرائد فقد نشرت خبراً عن الحفل قالت فيه: إن الحفل الموسيقي قد أُجِّل لوقت آخر، أما

أنا فكنت الصحفي الأول في العالم كله الذي يكتب عن حفل موسيقي كبير قبل حدوثه، والقصة التي سأرويها لكم تعبر عن نجاحي الثاني خلال حياتي الصحفية وبسببها طردت من العمل.

كان من المقرر وصول مسؤول أجنبي إلى استانبول بالطائرة، ناداني سكرتير التحرير وطلب مني أن أستقبل الزائر الضيف وأتحدث معه عن سبب مجيئه وأشياء أخرى، ثم قال لي: إياك أن تفعل مثلما فعلت في المرة الماضية عندما كتبت كلمات لم يذكرها غيرك. وبذلك وقعنا في موقف حرج، لكن الخطأ لم يكن خطأي في المرة الماضية، لأن الرجال الخمسة الذين كانوا يغادرون البلاد لا يتكلمون اللغة التركية مطلقاً، ولكي لا أعود بخفي حنين إلى الجريدة كتبت بضع كلمات من عندي، لأن الذين يعرفون الـ (وي) باللغة الفرنسية والـ (يس) باللغة الإنكليزية كانوا بعدد أصابع اليد الواحدة في ذلك الوقت. سألت تلك المجموعة حرفياً: كيف وجدتم بلادنا، فكان جوابهم حرفياً: إن بلادكم قد تقدمت كثيراً وأعجبنا بها وأدهشتنا، لقد صنعتم معجزة كبيرة خلال فترة زمنية قصيرة (بإذن الله..نصنع..نصنع)، لقد أصبح بلدكم بلداً أوروبياً، وخطوتم خطوات عملاقة نحو الأمام، لقد لاحظنا الفرق بين زيارتنا الأولى وهذه الزيارة. وفي هذا الجواب كنت قد اقترفت خطأ واحداً هو، أن الهيئة الخماسية الأجنبية كانت تحضر إلى تركيا لأول مرة، بعدها كنت قد سألت الهيئة الأجنبية حرفياً للمرة الثانية مايلي: ماهو الشيء الذي أعجبكم في بلدنا.. كان جوابهم لقد أعجبتنا نجوميتكم (أكلة مؤلفة من اللبن والخيار) ونقانقكم ومخللاتكم ونساءكم اللواتي أصبحن عصريات أيضاً.

لم أكتب هذه الكلمات دون تفهم، لأنني كنت قد أحضرت الأسئلة والأجوبة من الصحف القديمة بحذافيرها.. قال السكرتير: اذهب بسرعة الطائرة على وشك أن تهبط في المطار - ومصاريف الطريق؟ - تأخذها غداً من المحاسبة.

ذهبت مباشرة إلى محلات البلقان لبيع الكفتة الموجودة في الحي البابلي بعد أن انفتح صمام ذهني تماماً من أكل الكفتة.

اتجهت إلى استراحة - المسرات - وكتبت هناك ريبورتاجاً جميلاً مع الهيئة الوافدة بالطائرة، بحيث أن جميع من في الجريدة أعجبهم هذا الريبورتاج. وفي اليوم الثاني كتبت الجرائد أن الهيئة التي كان حريٌّ بها الوصول إلى استانبول أجّلت زيارتها إلى تركيا لظهور عطل في الطائرة التي كانت ستقلّهم، ومع ظهور هذا الخبر على صفحات الجرائد الأخرى فإن قيمة الريبورتاج الذي أجريته غيابياً دون أن ألتقي بأحد ظلت محتفظةً بجمالها على الأقل بالنسبة لي، حتى بالنسبة لكافة زملائي في الإدارة ومن شدة حسدهم لي طردوني من الجريدة شرَّ طردة.

مدير إحدى الجرائد المسائية صرّح بعد أن سمع ماحدث لي: حرام أن يُساء إلى شاب كهذا الصحفي الذي خلق معجزة بهذا التحقيق دون أن يلتقي بأحد، وأتمنى أن يعمل في جريدتنا. ((في هذه الأيام عندما أسمع بنجاح زملائي الشباب الذين لم يصلوا إلى بلادنا بسبب عطل طائراتهم، الحقيقة أحسُّ بالفخر والاعتزاز لنجاحهم)).

بدأت العمل في الجريدة المسائية والتي تتكون هيئة تحريرها من أربعة صحفيين وستة مقصات! أربعة صحفيين لستة مقصات، كانت هناك جريدة مسائية أخرى تنافس جريدتنا.

في إحدى الأمسيات جمعنا المدير وقال:

- وضع جريدتنا ليس على مايرام ((لأن مبيعاتها قليلة، يجب أن نقوم بحملة دعائية)).

لاشك أن هذه الميزة (فيَّ) هبة من الله. قلت مباشرة: تلك الجريدة تصدر الساعة الثالثة عشرة ولو أن جريدتنا تصدر الساعة السادسة عشرة، لاشك أننا سنبيع أكثر منها.

لم تُعجب فكرتي أحد (لأن الجريدة التي تنشر أخباراً قبل غيرها تبلغ مبيعاتها أكثر). قالوا ذلك قبل أن أوضح لهم ماكان يجول في خاطري، لكنّ المدير فضّل الاستماع لرأيي.

كُنّا نقصُّ كل الأخبار التي تنشرها الجريدة المنافسة (التي تصدر الساعة الثالثة عشرة). ونعلّق على تلك الأخبار ونطرّزها ونزركشها ونقدمها بأسلوب آخر. الجريدة المنافسة كانت تعتمد خمسة عشر محرراً في جمع أخبارها، أما جريدتنا فعمادها أربعة محررين وأربعة مقصات عجائز.... مهترئة.

نجحت خطتنا نجاحاً باهراً وكان دور المقصات فيها رائعاً.

في أحد الأيام نشرت تلك الجريدة الرقيبة خبراً جاء فيه:

- توفي المواطن أرتين سمازيان - أثناء صعوده إلى قمة العمود الذي يحمل علم البلاد، والموجود في الطابق الخامس، لأن العلم كان معلقاً على طرفيه لا يرفرف، وأثناء صعوده تعلق مربط بنطاله بقطعة حديدية مدبّبة على طرف العمود، فظل مواطننا المقدام معلقاً و لم يستطع أن يخلص نفسه وينقذ حياته، ولثقله انقطع مربط البنطال فسقط مواطننا أرتين من ارتفاع خمسة طوابق، فنزل على الأحجار المتراكمة قرب العمارة وتوفي، وجاء في الخبر إن نعش المواطن أرتين قد لف بعلم كبير موجود هناك، مع ذكر عنوان الشارع والبناية.

قصصت الخبر مباشرة وأضفت إليه بعض الكلمات وأنزلته الجريدة تحت عنوان كبير ((من أجل أن يرفرف العلم، سقط المسكين أرتين شهيداً)).

عندما أمعنّا النظر في العنوان، وبما أنه لا يمكن تسمية غير المسلم شهيداً ولكي نقطع القال والقيل فقد أنزلنا خبراً صغيراً في اليوم التالي جاء فيه:

(سبب تسمية المواطن أرتين شهيداً هو معرفتنا بأنه كان مختوناً).

بعد كل هذه الخدمات التي قدّمتها للجريدة، هل تعرفون ماذا حصل؟

لقد طردت والسبب: هو أن الجريدة المسائية نشرت في اليوم التالي خبراً مفاده: (الصحيفة التي تدّعي أنها منافسة لنا ((والحاشا من هنا)) كانت تقوم بسرقة أخبارنا - أولاً بأول - وتنشرها على صدر صحافتها، وبعد أن شككنا بعملهم المشين هذا قررنا أن نلقنهم درساً، فقد كتبنا في عدد الأمس أن فلاناً من الناس قد توفي.. كما جاء في الخبر، وكما هو متوقع فقد وقعت تلك الجريدة المنافقة في فخنا فسرقت الخبر ونشرته، مع العلم أنه لا يوجد شخص يدعى أرتين ياشبا سمازيان ولا حادثة وفاة ولا أي شيء من هذا القبيل.

وبما أن الحادثة شهرتني كثيراً، فقد أخذتني إحدى الجرائد الكبيرة لأكون محرراً فيها.

بعد فترة من تلك الحادثة، ولكي أُظهر نفسي ومقدرتي الصحفية كنت أبحث عن فرصة مناسبة لأثبت ذلك.

سأقص لكم حادثة جرت في هذه الجريدة التي أغلقت لسببي، نعم بسبب مقالة كتبتها. لكن لا أحد يعلم حتى الآن سبب إغلاق الجريدة

في ذلك الوقت.. سأروي ذلك، وكأنني أُخرج من أعماقي ذنباً اقترفته بحق تلك الجريدة بعد مرور كل تلك الأعوام الطويلة على حدوثها.

الفرصة التي كنتُ أنتظرها ظهرت أمامي فجأة.

في أحد الأيام ناداني صاحب الجريدة وقال: وزير الداخلية سيصل إلى استانبول بالقطار، الجرائد الأخرى لا علم لها بقدوم الوزير... اذهب مباشرة إلى محطة حيدر باشا وقابل الوزير وخذ منه أخباراً خاصة للجريدة.

وصلت إلى حيدر باشا وأنا متحمس جداً، حسبتُ أنني أوقعت بزملائي الصحفيين في بقية الجرائد، لكني وجدتهم هناك ينتظرون الوزير قبلي والقطار تأخر ساعة ونصف الساعة - حسب ما ذكروا لي - مباشرة ركِبت تاكسي واتجهت صوب محطة (بندكيا) وأنا سعيد لفكرتي (خبثي) لأنني سأرافق الوزير في القطار حتى محطة حيدر باشا، وقفت انتظر القطار، وأخيراً جاء، لكن ما حصل لم يكن في الحسبان فسيادة الوزير نزل المحطة هناك وركب مع مستقبلية بسيارة كانت تنتظره، ماذا أفعل؟ تحركتُ بسرعة وحشرت نفسي دون خوف، وجلستُ إلى جانب الوزير ونقلت إليه تحيات وتمنيات صاحب الجريدة وعندما أحس بأنه لا مجال للتخلص مني قال:

- إذا أردت المجيء معنا... تفضل!.

ركبتُ إلى جانب السائق ورجوت الوزير أن يدلي ببعض التصريحات لجريدتي (لندع بقية الصحفيين ينتظرون الوزير هناك، لقد أوقعت بهم حقاً وهاأنذا مع سيادة الوزير الصحفي الوحيد الذي سيفجر القنبلة لهذا الموسم، لكنْ لم تكن تصريحاته جديدة... نفسها تصريحات وزراء الداخلية السابقين تقريباً، كرر نفس تصريحاتهم

وأقوالهم: إن عدد أفراد الشرطة قليل بالنسبة لعدد السكان، يجب على المواطنين أن يساعدوا أفراد الشرطة. وهو في هذا الأمر (كان الوزير يطلب من المواطنين بإصرار).

إن قوات الأمن يجب أن تكبر وتزداد عدةً وعداداً ويجب تأهيل أفراد مدربين للحالات الخاصة وأكد بأنه لا يوجد متمردون في أية بقعة من البلاد. فقوات الأمن ستدعم مادياً ومعنوياً وزارة الداخلية وأنَّ هناك (الزي العصري) اللائق بهم.. إن سيادة الوزير قد لاحظ بعض العناصر وقد أرخت شواربها وأطالت شعر ذقونها..

فقد أمر بمنع إرخاء الشوارب وإطالة الذقون لكافة أفراد الأمن والشرطة.. وبالمختصر المفيد نفس التصريحات التي قيلت على ألسنة وزراء الداخلية السابقين عاماً بعد عام حتى حفظناها عن ظهر قلب.

كانت تصريحات الوزير قد ظهرت في اليوم التالي على صدر صفحات جريدتنا فقط، كنا قد سبقنا بقية الجرائد ووضعناها في (كف الشيطان)، وفي اليوم ذاته تم إغلاق جريدتنا، لا أحد يدري وحتى الآن - كيف أغلقت الجريدة، لكني سأوضح لكم الأمر لمعرفتي بأنه سيصبح وثيقة وذكرى في تاريخ صحافتنا.

في اليوم الذي ظهرت فيه تصريحات وزير الداخلية، كانت الجريدة خصصت مكاناً لخبر جريمة حصلت، وكذلك تقيماً لرواية - مترجمة - من أجل زيادة مبيعاتها، هذه الأخبار الثلاثة يعني.. تصريحات الوزير، وخبر الجريمة، وتقييم الرواية، جميعها تداخلت سطورها وتشابكت كأنها تمت عن قصد أو كأن أحدهم وراء هذا الفعل، والآن سأعمل على إظهار تلك المقالة المتشابكة والتي خبأتها لسنوات طويلة.

- تصريحات سيادة وزير الداخلية لجريدتنا: ((من أجل سوابق المدعو ظيرلي شاكر والمدعو معروف أظلي، وصل بسلامة ا لله بالأمس إلى مدينتنا بالقطار سيادة وزير الداخلية الموقر، كي يقوم ببعض المناقشات والمحادثات مع مسؤولي المحافظة)).

بعد حصول تلك الجريمة التي وقعت بالأمس، بنزوله من القطار في محطة بنديكا تحدث سيادة الوزير لجريدتنا حديثاً خاصاً بجمل قليلة قال فيه: ذكروا لي أن عشيقتي /ملاحات/ السمينة تقوم بعلاقات غرامية مع غيري.

وأنا منذ وقت طويل. أراقب تحركاتها، والأمن مستتب في أرجاء البلاد كافة.

هذه الجريمة المخيفة، ويفهم من الحادثة التي مرّ بها سيادة وزير داخليتنا وخاصة أن قوات الأمن ليست بالكفاية المطلوبة. وقد عاش مع المرأة التي قتلها حوالي ستة شهور حياة (الخل بالخل)، وفجأة عندما ركز بصره على ثقب الباب ماذا وجد؟.

رأى جانيت عارية ((فرانك يا ولدي فرانك، أنت الرجل الوحيد في حياتي)).

وبشهوة راقب أنينها وفجأة تحول إلى مجنون وجواباً لمحررنا قال سيادته: أرجو المواطنين الأعزاء أن يتعاونوا مع أفراد الشرطة في كل الظروف ورجائي الخاص للجريدة التي تبرز هذه النقطة بالذات، وأنا منذ ثلاثة أشهر أراقب تحركاتها المشبوهة. وفي ليلة الأمس وبعد أن شربتُ مافيه الكفاية وبالتفتيش الذي قمتُ به اتضح أن بعض عناصر الأمن قد أطلقت شواربها وأطالت ذقونها، وقد عممتُ أمراً بحلق الشوارب والذقون، وبما أن الأمر قد عُمّم فقد أحس موريس بالدهشة

والاستغراب لأن خطيبته جانيت كانت نائمة على صدر عمها فرانـك،
عندما تحدثت جانيت وهي تحضن شعر صدر فرانـك قائلة: إننـا نفكـر
جدياً بتغيير شروط حياة قواتنا الأمنية، ورداً علـى سؤال محررنـا حـول
الزي الرسمي، أجاب سيادته: كان سروالها وصدريتها على الأرض.

قال فرانك وهو يدفع جانيت: يجـب على قـوات الأمـن أن تقـص
شعرها وترتدي الزي العصري الحديث، وبما أن القاتل حاول الهرب بعد
جريمته فقد قال سيادة الوزير: أخـذت سـكين الخبز الـتي كـانت على
الطاولة وبعدها لم أعد أذكر شيئاً حتى الآن.

لا أحد يعلم أن جريدتنا أغلقت بسبب المقالة المتشابكة لأنه لم يقرأ
الجريدة إلا المسؤولين فقط، حتى صاحب الجريدة نفسه لم يقرأها لقد
كان تخمين صاحب الجريدة أنها أغلقت بسبب المقالة الافتتاحية التي
قيّمت بعض أمور الدولة.

* * *

مذكرة تعليمات خاصة لباعة الكفتة المتجولين

لو أجرينا إحصاءً خاصاً بعدد الكتب الفكاهية والساخرة فالنتيجة ستكون حتماً إما خمسة أو عشرة كتب بالأكثر، لكن تبقى هذه الكتب تافهة المضمون فارغة المحتوى، إضافة إلى ما سأرويه لكم عن هذا الأثر الرائع، ربما تستغربون كيف بقي هذا الأثر الفكاهي الساخر في الخفاء دون أن يراه أحد.

أنتم تعلمون أن الكتب الرسمية الصادرة عن الدوائر والمؤسسات الحكومية والبلديات، لا يقرأها أحد خاصة إذا كان أحد هذه الكتب مذكرة تعليمات - فلن ينظر إليها أحد أصلاً. ربما أن هذا الأثر الفكاهي الذي تحدثت عنه آنفاً مذكرة تعليمات لم يقرأها أحد، فلو عكسنا الأمر ووضعنا لهذا الأثر اسماً جذاباً وغلافاً أنيقاً وأنزلناه السوق، بالتأكيد ستكون مبيعاته عشرات الألوف من النسخ، علماً أن بيع الكتب في بلادنا قليل بل نادر، وبعد فترة زمنية قصيرة ستتحول هذه الكتب إلى أثر رائع وتترجم إلى جميع لغات العالم خاصة لغة الأمريكيين والأوروبيين الذين يصرون بقوة بأننا قوم لا نساوي شيئاً حتى نتعرف عليهم، وبذلك نكون قد أجبرناهم على معرفتنا، ولا شك أنتم متشوقون لسماع اسم مبدع هذا الأثر الذي أثني عليه كما قرأتم.

أنا لا أحب أن أمدح نفسي ولكن أستطيع أن أقول بأنني واحد من أحد عشر اسماً تعاونوا في خلق هذا الأثر الرائع ولي الشرف العظيم - كوني شاركت البقية في خلقه.

أنا أعمل في مجال هندسة العدسات (أي مهندس فيزيائي) وهذا الاختصاص بعيد جداً عن مجال الأدب والاهتمامات الأدبية، فالكثيرون لا يصدقون ما قمت به لإظهار هذا العمل الأدبي الصعب إلى حيّز

الوجود، أنا الآخر في غاية العجب لأنني لست الوحيد البعيد عن المجال الأدب، بقية زملائي العشرة الذين شاركوا في إنجاز هذا العمل الأدبي الساخر وإظهاره بهذا الشكل، جميعهم بعيدون عن الأدب ومكنوناته. كلنا مختصون في المجالات العلمية، إذا أراد أي واحد منّا أن يكتب رسالة بمفرده فإنه لا يستطيع ذلك، لكنْ عندما اجتمعنا استطعنا متعاونين خلق هذا الأثر الأدبي.

إذاً نستطيع أن نقول: كما تنبثق القوة من الاتحاد، كذلك الآثار الفكاهية بعد أربع سنوات دراسية في ألمانيا.

ذهبت إلى أمريكا لإكمال اختصاصي في هندسة الشعاع والإنكسارات (اوبتيك) وأصبحت خبيراً في هذا المجال. ومن المعروف أن هندسة العدسات مجالها واسع الطيف، ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم والتكنيك.

نعم لقد أصبحت خبيراً في تقطع الأشعة المنكسرة وتكوينها للمحارق، ولم يكن في العالم سوى ثمانية خبراء مختصين في هذا المجال، وأنا واحد منهم، في البداية لم أكن أعرف وجود هذا المجال العلمي الواسع، كنت أهزأ من نفسي لأنني أشبّه كلمة أوبتيك (Optik) بطعام يصنعه الأرمن واسمه توبيك (Topik)، ومع مرور الزمن والملاحظات الدقيقة من قبل أساتذتي وضغطهم عليّ، وتحت طلباتهم الملحّة وبنهاية الامتحانات التي أجروها لي، أصبحت واحداً من ثمانية خبراء في هذا المجال وكنت أصغرهم سناً.

أما /عُمُر/ الذي يليني في الكبر (ثمانية وستون عاماً) كان يكبرني بتسع وثلاثين سنة، لهذا السبب لقبوني (بطفل أوبتيك) وكنت أشعر بالفخر والاعتزاز لنيلي هذا اللقب، باسم دولتي وأمتي نلت ميداليتين

ذهبيتين لأبحاثي ومكتشفاتي فالكتاب الذي ألّفته في هذا المجال أصبح كتاباً يدرّس في الجامعات العلمية - أي أنني كنت بروفسوراً كبيراً، راتبي الشهري يزيد علة ثلاثة آلاف دولار.

ربما لا تفهمون اختصاصي ودراستي لكن سأحاول باختصار أن أوضح لكم كنه علمنا واختصاصنا. علمنا كان منحصراً في إيجاد ووضع عدسات خاصة لمراقبة ومشاهدة النجوم والكواكب التي لا ترى فهي تبعد عنا آلاف السنين الضوئية، وبما أن دراستي في ألمانيا وأمريكا كانت على نفقة الدولة، فقد أرسلت الحكومة التركية تطالبني بالعودة إلى الوطن كي أخدم بلدي (الخدمة الإلزامية)، لكن الهيئة والجامعة التي كنت متعاقداً معها تمسكتْ بي وأكدت أنها ستحاول تخليصي قانونياً من طلب حكومتي لي.

والدي الذي وصله هذا النبأ، بعث رسالة توبيخ ثقيلة قاسية هزتني كثيراً - إذ قال فيها: ((إذا كنت حقاً ابني الذي نزل من ظهري يجب أن تعود إلى وطنك مباشرة، وتخدمه بشرف كما خدمك وعلّمك. هذه الأمة الفقيرة قطعت من خبزها وكسائها وأرسلتك إلى هناك لتتعلم وجعلت منك إنساناً يجب أ، تؤدي ما عليك من ديون إلى وطنك وأمتك.

إنك تحاول الهرب من هذا الواجب الوطني ،إذا كنت ابني حقاً فلن تفعل هذه الحقارة أبداً)) والرسائل التي وصلتني فيما بعد ،كانت تحمل نفس القساوة أو أكثر .كتبت إليه رسالة مطولة أشرح له فيها : بأن وجودي خارج وطني ليس معناه أنني لا أخدمه ،بالعكس تماماً أستطيع أن أخدمه بكل صدق وأمانة ،وشرحت له كل ذلك بالتفصيل .فكان جوابه لرسالتي صفحتين كبيرتين من السباب والشتم وأنهى رسالته ب

((كلب ابن كلب ...ليس لي ابن حقير مثلك)).

احترت في أمري و لم أستطع التوصل الى قرار ،فقد كتبت الى صديق في استانبول احترم رأيه كثيراً وطلبت منه ان يسعفني برأيه ،هل أعود إلى وطني أم أبقى هنا؟...فكان جوابه أمريكا ليست بحاجة اليك . وطنك بحاجة إليك يا صديقي ، وأنت تحب بلدك ، لم أكن أتوقع منك هذه الانهزامية .وأنا في حيرة من أمري إذ برسالة تصلني من والدتي تقول فيها:((ولدي لقد أصيب والدك بشلل نصفي وهو يهذي باسمك طوال الليالي)). لم أعد أفكر بالكواكب وبالمحارق والهندسة الفيزيائية ،تركت كل شيء - رأساً على عقب - وعدت الى وطني ،كنت أثق بقدراتي العلمية وأرى نفسي قوياً وقوياً جداً ،كأنني لاعب أثقال سأرفع تركيا عالياً الى النجوم والكواكب .بقيت شهرين دون عمل ،ومهما حاول السادة المسؤولون أن يجدوا عملاً مناسباً لاختصاصي ، لم يفلحوا في ذلك ... لقد احتاروا.

أحد المسؤولين الذين ضاقوا ذرعاً بذهابي وإيابي قال :إننا نفكر يا ولدي ...نحن نعلم أنك درست كثيراً ،ولا بد أن نجد لك عملاً تعيش منه، لا تأت إلينا هكذا بشكل مستمر.. هل جئت إليّ قبل ذهابك واستشرتني فيما يجب أن يكون؟ أو سألتني ماذا أدرس يا عم ؟! ذهبت ودرست و لم يعجبك شيء غير هندسة العدسات... ماذا أفعل الآن؟ كيف سأجد لك عملاً؟ هل نبني مصنعاً لصنع المناظير الفلكية، ا الله ا الله ما هذه (العْلقة) يا عالم!!..

كنا نفكر بكل الاختصاصات - الطب - السنية - الكيمياء - الهندسة، لكن من كان يفكر بهندسة المناظير - حتى الشيطان البعيد لم يفكر بهذا الاختصاص.

لكم خجلت في ذلك الوقت، وتمتمت: أنت على حق يا أفندم ...
قال:عندما نجد عملاً لك نبعث بطلبك.

في ذلك الوقت تمسّك أبي بقرار اتخذه لنفسه قائلاً: إنني أعيش أيامي الأخيرة، إذا لم أفرح بك فسأذهب إلى الآخرة مفتوح العينين. سأزوجك. دافعت ورفضت قائلاً:لا أملك مالاً ولا عملاً، ولم أجهز نفسي بعد، ذهب كل عنادي سدى - إنهن يقفن بالدور - أنت مهندس كبير وعظيم، درست في أمريكا وأية فتاة تتمنى أن تكون زوجة لك . وزوجوني فتاة اختاروها من آخر الرتل (الزيل)، وأصبحت العائلة كلها تعيش على راتب والدي التقاعدي الضئيل.

آه ... وزوجتي كأنها تنتظر الفرصة المناسبة فأصبحت حاملاً بين ليلة و ضحاها، وجاء قرار تعييني في أحد معامل النسيج الحكومية - أنا لا أفهم بالنسيج ولا بالخيوط - قالوا: أنت في كل الأحوال مهندس وتستطيع أن تفهم أكثر من العاملين في المصنع، رضينا بالواقع وعملنا، وهذا أفضل من اللاشيء، ولكن هناك مشكلة أخرى اعترضتني. وهي مشكلة الراتب فهو لا يكفي إلا ليومين أو ثلاثة أيام. ماذا أفعل؟..

تذكرت صديقي في استانبول - صديقي الذي طلب مني الحضور والعودة إلى الوطن ((أمريكا ليست بحاجة إليك وطنك بحاجة إليك)).

ذهبت إليه - كان قد أصبح رئيساً للبلدية... قلت له: لقد أخذنا بوجهة نظرك وعدنا إلى الوطن.. إن وضعي سيء جداً، وصاحب البيت الذي أسكن عنده على وشك أن يطردني لأنني لا أستطيع أن أدفع إيجار المنزل لذلك سأعود إلى أمريكا...

- لا لن تذهب - لن تعود إلى أمريكا لأن البلد سيستفيد منك.
- هذا أنا... وهذا هو البلد... ليستفد مني.

- اسمع يا صديقي سأجد لك عملاً منتجاً وسيكون دخلك الشهري كبيراً... اصبر علي يومين أو ثلاثة فقط وسترى..

بالفعل بعد ثلاثة أيام اتصل بي هاتفياً وقال: مكانك جاهز ستبدأ العمل اعتباراً من بداية الشهر.

- وما هو العمل؟
- إنه عمل لا يليق بك، لكن دخله كبير - لقد شُكّلت لجنتان إحداهما في مديرية المقابر التابعة للبلدية والثانية في مديرية التنظيفات أنت حرٌّ تستطيع العمل في أية واحدة منها.
- اترك المزاح يا هو...
- هذا ليس مزاحاً... إن العمل في مديرية المقابر أسهل.

فكّرت بيني وبين نفسي فتوصلت إلى قرار... إنْ عملت في معمل النسيج أو في مديرية المقابر، فالعملان ليسا من اختصاصي... إذن أعمل في الجهة التي تدرّ مالاً أكثر...

كل صباح كنت أذهب ودون تأخير إلى مكتبي في مديرية المقابر، وهو عبارة عن غرفة كبيرة فيها خزانة قديمة ومنضدتان قديمتان وثلاثة كراسي، كنت لا أخرج منه إلا عند انتهاء الدوام الرسمي، قبضت راتبي الأول، وإذ بهم يعطونني ثمانمائة ليرة، استغربت ذلك كثيراً وذهبت إلى رئيس البلدية (الذي هو بمثابة صديقي) وقلت له: كنت أقبض في معمل النسيج ألف ليرة ولا أستطيع أن أتصرف بحياتي فكيف سأعيش بثمانمائة ليرة؟

- لا تنظر إلى الراتب يا أخي - إنه رمزي - غداً عندما تصبح عضو في اللجنة ستقبض مهمات وتعويضات كثيرة وكثيرة جداً.
- أية لجنة هذه؟

- نأخذ منك أفكاراً مهمة في مجال عملك الحقيقي.

قلت في نفسي وأنا مسرور جداً: وأخيراً سأكون مفيداً لوطني، في صباح أحد الأيام وجدت فوق منضدتي ورقة مختومة بختم رئيس البلدية وقد كتبت بالآلة الكاتبة وعلى ثمانية نسخ دفعة واحدة. كلمات النسخة الثانية لم تكن واضحة، حاولت أن أفهم منها شيئاً، فلم أصل إلى نتيجة لكن بعد السؤال والجواب توصلت إلى مضمونها، لقد عينوني عضواً في لجنة تتألف من أحد عشر عضواً ومهمة هذه اللجنة محصورة في تحضير مذكرة تعليمات خاصة ببائعي الكفتة المتجولين. كان اجتماعنا صباح الجمعة القادم في قصر البلدية في الصالة التي خصصت لهذه اللجنة.

ولإخلاصي الشديد لعملي ومهمتي، وصلت إلى مكان الاجتماع الساعة التاسعة إلا خمس دقائق وانتظرت.

جاوزت الساعة التاسعة... التاسعة والنصف... العاشرة، ولم يحضر أحد. في تمام العاشرة وعشر دقائق جاء شخص وإذ به من أعضاء اللجنة، تعارفنا..

عرفت أنه طبيب يعمل في مديرية لوازم البلدية.

قلت له: إن تحضير المذكرة بحق بائعي الكفتة المتجولين أمر مقبول بالنسبة لعملك، أما أنا مهندس عدسات ولا أعتفد أنني سأكون مفيداً في تحضير المذكرة، لأني لا أفهم عنها شيئاً، تغيرت سحنة الطبيب بعد أن قلت له ذلك، وقال: وما هي العلاقة التي تربطني ببائعي الكفتة المتجولين؟

-كيف ذلك؟... أنت على الأقل طبيب والطبيب له علاقة كبيرة في مجال الصحة وبالأحرى سيكون له علاقة بتحضير المذكرة.

- ولكن اختصاصي يتعلق فقط بتجبير الكسور والخلوع والرضوض أي أنا (مجبّر) ربما تعتقد أن المجبر له علاقة ببائعي الكفتة المتجولين هذه المرة سحنتي هي التي تغيرت و لم أدر ما سأقول.. في هذه الأثناء جاء ثلاثة أعضاء دفعة واحدة، أحدهم يعمل في مديرية الرعاية بالأشجار التابعة للبلدية، وهو في نفس الوقت عقيد متقاعد. أما الثاني فهو مهندس ديكور يتقاضى راتبه من مديرية الذاتية التابعة للبلدية أيضاً.

أما الثالث فهو طبيب أسنان، ظل في مجال عمله عشر سنوات بعد ذلك أصبح موظفاً في مديرية الأحوال المدنية التابعة للبلدية.

قلت لمهندس الديكور: أنا أعمل في مديرية المقابر، ولكن عملي الأصلي مهندس عدسات، وبما أنني لا أعلم شيئاً عن بائعي الكفتة المتجولين، فلا أعتقد أنني سأكون مفيداً في تحضير المذكرة، وأعتقد أن دوري سيكون بسيطاً في هذا المجال.

قال الرجل ضاحكاً: من الواضح أنك جديد في هذه اللجنة أليس كذلك؟

- نعم لأول مرة.

- أنا للمرة الثانية أشترك في هذه اللجنة، الإنسان عندما يبدأ بعمل جديد يعتقد أنه لن يقدر عليه، لكن العمل - مع مرور الزمن - يصبح حقيقة.

في العام الماضي كنت عضواً في لجنة، جهزّتُ مذكرةً خاصة بالحيوانات ذات الحافر - ودخولها الشوارع واستعمالها الطرق إلى آخر ما هنالك... لا تخف ستنجح في عملك.

حوالي الساعة الحادية عشر حضر كل الأعضاء، كنت جالساً بين رسام وطبيب بيطري، قلت للبيطري: هذا العمل غريب علي (لا أعرف

عنه شيئاً) قال البيطري: بالنسبة لعمل كهذا يكفي أن يكون المرء مثقفاً عاماً، بعد ذلك قمنا بتحضير تعليمات ومذكرات خاصة كثيرة حتى تاريخه لم تعرقلنا مشكلة واحدة أثناء تحضيرها وتجهيزها.

باستغراب شديد ونية صافية خالية من السوء، سألت البيطري: هل هذا صحيح؟ ما معنى هذا صحيح؟ ماذا تقصد؟ يعني جميعنا خبراء في مجال عملنا ألا نستطيع - مجتمعين - تحضير هذه المذكرة.

طيلة فترة الاجتماع لم أتحدث مع البيطري الغاضب، تحدث العقيد المتقاعد الذي يجلس مقابلي قائلاً: أيها الإخوة... اسمحوا لي - وككل مرة - أن أكلف السيد عاطف بك رئيساً للجنة.

كان العقيد المتقاعد قد عرَّفَ بالسيد عاطف على النحو التالي: عاطف بك موظف قديم في البلدية له في الخدمة واحد وعشرون عاماً، وهو يعمل الآن في مديرية التنظيفات رئيساً للشعبة، وإذ بأحد الأعضاء يسألني: - كأنني الوحيد - هل أعترض على ذلك أيها الأفندي، العضو الذي سألني يعمل في مصلحة المياه التابعة للبلدية، وهو في الوقت نفسه أستاذ قديم في الفلسفة. أجبته وأنا أحس بخجل كبير: عفواً أيها السيد المحترم، أنا نهندس عدسات أعمل في مديرية المقابر، كيف سيكون لي اعتراض على ذلك، وكيف تسألني عن سبب الاعتراض؟...

- هل لك اعتراض على رئاسة السيد عاطف بك؟
- هل أنا الوحيد الذي يجب أن يؤخذ رأيه هنا أيها السيد؟
- لأنك حديث العهد هنا.
- إذن فنعم الرأي يا سيدي ليكن السيد عاطف أو غيره رئيساً، كلكم مناسبون لهذا المنصب.

تكلم السيد عاطف رئيس الشعبة في مديرية العمل قائلاً:

- يا سيدي - من المعلوم (بالنسبة لي لم أكن أعلم شيئاً).

وبالاعتماد على نظام البلدية فالعمل داخل حدودها ممنوع لباعة الكفتة المتجولين، لأسباب عديدة منها: وجود نقص كبير في طاقم دوريات البلدية واتساع المدن يوماً بعد يوم، لهذه الأسباب مجتمعة أصبحت المجادلة مع بائعي الكفتة المتجولين أمراً عسيراً، لهذا أيضاً طلبني السيد رئيس البلدية وقال لي: نحن كبلدية توصلنا إلى قناعة هي أن المجادلة (المصارعة) مع بائعي الكفتة أصبحت صعبة وغير ممكنة. على الأقل لا ندعهم يسرحون ويمرحون على كيفهم، وخاصة من الناحية الصحية ولأسباب أخرى. يجب وضعهم تحت المراقبة العامة، لهذا نحن بحاجة إلى مذكرة قانونية تحدد تصرفاتهم وتحركاتهم، فنحن لم نجتمع إلا من أجل تحضير هذه المذكرة. كان الرجل يتكلم وكأنه يكتب كتاباً رسمياً - النقطة - والفاصلة، لكنْ جُمَلَهُ كانت طويلة ومملة ومن الصعب على المرء فهمها مباشرة.

تكلم أحدهم وهو مهندس زراعي مختص في مجال الغابات ويعمل في شعبة الجباية التابعة للبلدية قائلاً: في اعتقادي أن الأمر قد فهم... لنتذاكر حول الموضوع.

وبما أنني أفهم معنى كلمة نتذاكر فقد سألت الرسام الذي يجلس إلى يساري..

- عفواً - ماذا سنفعل؟ ما معنى نتذاكر؟

أجابني الرسام سنتكلم حول عمل بائعي الكفتة المتجولين، ((يبدو أن بطلنا لم يفهم هذا أيضاً، لنعد إلى لسانه)).

وبما أنني لم أفهم هذه الكلمة أيضاً، فقد نظرت إلى وجه الرجل نظرات طويلة ومعبّرة، على أثرها أحس الرجل بذلك.

قال: يعني سنتناقش فقط حول بائعي الكفتة - أي كل من يعرف عنهم شيئاً يقوله، ومن مجمل الأحاديث والأقاويل سنتوصل إلى قرار بشأنهم، تكلم الرسام مندوب مديرية الأحوال المدنية التابعة للبلدية قائلاً:

- أعتقد أن الموضوع أصبح مفهوماً للجميع، ثم تكلم السيد عاطف رئيس اللجنة وهو ينظر إلى ساعته، أرى أن نترك المناقشات لجلسة ما بعد الظهر لأن وقت الغذاء قد حان، طبعاً إذا كنتم موافقين، نهض العقيد المتقاعد - الذي يعمل في مديرية تنظيم الحدائق التابعة للبلدية، وقف على قدميه وقال: أنا موافق.

عندما بدأ الأعضاء بالخروج: تحدث السيد عاطف. الجلسة القادمة في الساعة الثالثة عشرة من بعد ظهر هذا اليوم يا سادة.

تكلم المجبّر الذي يعمل في مديرية اللوازم التابعة للبلدية: ربما أتأخر قليلاً لا تهتموا بذلك فكل القرارات التي تتخذونها حول الموضوع، أوافق عليها منذ الآن، وبكل تأكيد سأحاول أن أحضر الاجتماع حتى لو جئت متأخراً. خرج الجميع وهم يتحدثون وذهبوا، أما أنا خرجت من بينهم وأنا أفكر. بعد الظهر اكتمل عدد الأعضاء إلا واحداً، تكلم السيد عاطف قائلاً: إن منظر بائعي الكفتة المتجولين داخل المدن بشع جداً ومن المناسب والضروري وضعهم تحت رحمة مذكرة تعليمات خاصة بهم تربطهم في حلّهم وترحالهم.

قال مهندس الديكور: (ممثل مديرية الذاتية التابعة للبلدية) إن هذه المذكرة تأخرت كثيراً وكان من الضروري جداً تجهيزها منذ وقت طويل.

أما العقيد المتقاعد (ممثل مديرية الحدائق) فقد قال: عين الصواب يا سيدي، ولكن هناك نقطة مهمة جداً غابت عن نظركم.

وبما أن (دمي قد فار) لما قاله العقيد فقد أصغيت لما سيقوله. تابع كلامه بعد أن سعل سعلة قوية.

- من الضروري والطبيعي جداً أن تحضّر هذه المذكرة، منذ وقت طويل ومن الضروري أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار مستوى الغرب، البلد بحاجة ماسة إلى خبراء أذكياء، والوصول إلى ذلك ليس سهلاً أبداً يا سيدي.

فمثلاً الزملاء المجتمعون هنا كل منهم وصل إلى ما وصل إليه في أوروبا وأمريكا - مثلاً - أنا شخصياً (محسوبكم) عفواً - عملت في زماني معاون قائد وحده، ومن المعروف أيضاً قبل عشر سنوات كان من الصعب جداً أن يجتمع عشرة خبراء كي يجهزوا مذكرة بهذا الشكل.

لقد خطا وطننا خطوات كبيرة في مجال التقدم قياساً بالأعوام الماضية يا سادة، قال البيطري (ممثل مديرية الإعلان التابعة للبلدية) لا شك في ذلك، ثم التفتَ إلي وسألني: وأنتم يا سيدي ألستم معنا في هذا الرأي؟

أصابني نوع من الخمول والخبل وأصبحت لا أفهم الذين يجلسون معي و لم أعد أعي شيئاً البتة.

سألته: مثل ماذا؟

البيطري: مثل أي ماذا يا أخي؟ البلد... ألم يتقدم قياساً بالأعوام السابقة؟

قلت: وهل هناك غير التقدم؟ طبعاً تقدم البلد كثيراً.

البيطري: نعم يا سيدي، لقد ولّى زمان الحصان والعربة و((الترومايات)) أما الآن نرى الميكروباصات تتحرك باستمرار في شوارع استانبول. في هذه الأثناء، دخل المجبّر وبدأ يخلع معطفه وهو يقول: المعذرة تأخرت عليكم لعمل مهم، هل تناولتم في مناقشاتكم النقاط الضرورية؟

وجلس في مكانه.

قال المهندس الزراعي الذي يعمل في مديرية الجباية: المناقشات بدأت قبل قليل.

قال السيد عاطف: إذا كان الأمر هكذا فالمسألة قد حُلّت، والأمور قد وضحت الآن.

تكلم البيطري مقاطعاً السيد عاطف: عفواً يا سيدي لو سمحتم لي بالحديث، هناك نقطة مهمة جداً أقولها مع الأسف الشديد، أظن أننا لم نهتم بشكل جدي بهؤلاء الباعة المتجولين ولا نملك معلومات عن مجال عملهم، فالمطلوب منا الآن تحضير مذكرة خاصة بهم، وفي اعتقادي أن الأمر ليس سهلاً أيها الأخوة. لابد أن أعترف أمامكم - لا أملك أية معلومات عن هؤلاء الباعة أنا أعترف أنني أملك معلومات كافية ووافية عن الباعة الثابتين، ولكن عندما أصبح بائعوا الكفتة سيارين أصبح الأمر مغايراً. كان المطلوب من الجميع أخذ موافقتي فقالوا: أليس كذلك يا سيدس؟

قلت: ليكن ذلك؟

قال البيطري: من أجل هذا لا نستطيع القيام بهذا العمل مباشرة ودفعة واحدة رجاءً لنترك هذا الروتين إن كل ما أصابنا من تحت رأس الروتين.

قال المهندس الزراعي: لقد أبرزت نقطة حساسة - بارك الله فيك - إننا لنا في الكثير من الروتين.

قال المجبر للبيطري: عمرك أطول من عمري، كنت سأتناول هذه النقطة، ولكنك طرحت الموضوع قبلي. يكفي ماعنيناه حتى الآن من تحت رأس الروتين. وبما أنه مطلوب منا مذكرة تعليمات خاصة. يجب علينا أن نجمع المعلومات قبل كل شيء.

قال السيد عاطف: لقد تبلور الموضوع الآن، فالواضح إننا لن نأتي إلى هنا إلا ونحن في أتم استعداد.

قال طبيب الأسنان: أليس هذا طبيعي جداً يا سيدي، سنرسل الكتاب إلى الوزير.

السيد عاطف: اليوم جمعة وغداً السبت (وهو بطبيعة الحال نصف يوم عمل) والأحد عطلة أسبوعية فليبحث كل منا الموضوع بينه وبين نفسه جيداً وسيكون اجتماعنا بعد ظهر الاثنين القادم في الساعة السادسة عشر.. أليس الوقت مناسباً؟

ولضرورة العمل الرسمي، كتب السيد محضراً نظامياً جاء فيه ((نحن الموقعين أدناه أعضاء اللجنة المشكلة من قبل البلدية، وعددنا أحد عشر عضواً - المكلفة بتحضير مذكرة تعليمات خاصة لبائعي الكفتة المتجولين وبعد التناول والتذاكر والمناقشات تم توقيعنا)).

وقّع الجميع على المحضر وتفرقنا.

وبما أنني لم أفهم مهمتي في تحضير هذه المذكرة، قضيت ليلتي برؤية الأحلام المزعجة، وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى صديقي رئيس البلدية وقلت له: أنا غير مستعد لتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقي يا صديقي، أنني أعتذر عن المهمة.

سألني: لماذا؟

– في حياتي كلها لم أهتم بهذا الموضوع ولا علاقة تربطني به، فأنا لم آكل لقمة واحدة من بائع سيّار. فكيف سأحضر مذكرة عنهم؟! ربما أستطيع أن أعدّ مذكرة عن المناظير التابعة للبلدية أو العدسات والنظارات ربما أفيد في هذه الحالات، أضف إلى ذلك فأنا لا أحب الكفتة أبداً.

قال صديقي: من الواضح أنك فقد ضخمت الأمر أكثر من اللازم. نحن كبلدية مجبرون لتحضير هذه المذكرة. كل عضو في اللجنة مثقف ومنور هل تريد أن يعدها أفراد عاديون؟

هو كذلك – أنت تعلم أنني درست هندسة العدسات في أوروبا وأمريكا.

قال رئيس البلدية: ياهو .. يعني كي نعمل على تجهيز هذه المذكرة علينا إرسال (ناس) إلى أوروبا وأمريكا للاختصاص في بيع الكفتة وعندما يعودون يعدّون لنا هذه المذكرة، ما رأيك أن نجلب مختصين من الخارج ليقوموا بهذا العمل. إنه عمل سيء جداً ولهذا السبب تذهب أموال هذا البلد الفقير إلى جيوب الغرباء – هيا.... لا تضخم الأمر كثيراً، لابد أن يكون لك رأي ووسيلة في حل مشاكل وقضايا هذا البلد. لم يكن صديقي مخطئاً في وجهة نظره أبداً، ربما هذه المذكرة ستعد في كل الأحوال يجب أن لا ندع الآخرين يدخلون أنوفهم في هذا الأمر، وقيامنا بهذا العمل هو الصواب عينه.

ذهبت إلى البيت وبدأت بالتنقيب في كتبي وموسوعاتي علّني أجد فيها معلومات عن الكفتة وبائعيها، لكن مع الأسف لم أكتشف شيئاً أبداً، عندما جاء مساء يوم الأحد أحسست بآلام فظيعة في معدتي

وأمعائي والسبب أنني طيلة ذلك اليوم وأنا أنتقل من مكان إلى آخر بحثاً عن بائعي الكفتة السيارين، كي أراهم وأغربل طريقة عملهم على الطبيعة.. وجدتهم وأكلت من كل بائع قابلته قطعة، بعضهم كان يضع الكفتة على قطعة خبز صغيرة وبعضهم على صوان من الألمنيوم والبعض الآخر يلفها بورق الجرائد وقسم منهم مزج الكفتةً بالبقدونس. وبعد كل ذلك لم أصل إلى معلومات إضافية وبالرغم من قلة المعلومات التي توصلت إليها كانت السبب في آلام معدتي وأمعائي فبقيت أتألم طوال الليل.

التقينا بعد ظهر الاثنين في مكان الاجتماع.

قال السيد عاطف: هل جميع الأخوة موجودون؟

عندما قمنا بإحصاء أنفسنا وجدنا أننا عشرة. واللجنة يجب أن تكون أحد عشر إذن أحدهم لم يحضر. ولكي يُعرف الغائب قرأ السيد عاطف كتاب رئيس البلدية ثم قال: على الأغلب الغائب هو ممثل إدارة الكهرباء.

قال أستاذ الفلسفة القديم (ممثل إدارة المياه: في الاجتماعات الماضية أيضاً). لم يحضر ذلك الزميل.

قال طبيب الأسنان: زميلنا مريض.

السيد عاطف: وجوده ضروري كي يوقع على القرارات التي سنتوصل إليها.

طبيب الأسنان: لا أهمية لغيابه سأوقع بدلاً عنه.

السيد عاطف: رجاءً لا تهملوا ذلك، غداً تظهر المشاكل في لائحة الصرفيات تأخر الاجتماع لبعض الوقت وفي نهاية الاجتماع وقع طبيب

الأسنان عن زميله الغائب وهمس المهندس الزراعي في أذني (وهو يجلس بجانبي).

- أعمالنا هكذا دائماً (هات إيدك والحقني).

سألته: مثل ماذا يا سيدي؟.

كيف مثل ماذا؟ هذا الزميل الغائب هو لاعب كرة قديم ومشهور ولأنه مشهور وضعوه في إدارة الكهرباء، ماذا يفهم لاعب الكرة عن الكهرباء؟.

- وأنا أيضاً لا أفهم شيئاً عن طبيعة عمل بائعي الكفتة.

نعم... نعم يا سيدي إنكم على الأقل تشتركون في المناقشات وتحضرون اجتماعات أما هو فلم يأت أصلاً.

في هذه الفترة ضغط السيد عاطف الجرس وطلب لنا القهوة والشاي، وبما أن معدتي لم تزل غير طبيعية فقد طلبتُ (كازوزاً). ((وكان من ضمن مهام رئيس اللجنة دفع ثمن المشروبات فقط)).

قال السيد عاطف: الزملاء الجاهزون يستطيعون التحدث.

تكلم العقيد المتقاعد ممثل مديرية الحدائق العامة التابعة للبلدية:

- أتسمح لي بالكلام يا سيدي؟

- تفضلوا يا سيادة العقيد.

بدأ العقيد كلامه: قبل كل شيء أريد أن أحصر المناقشات التي أجريناها حول موضوع عربات الأحصنة، يجب أن نضع نظاماً خاصاً لبائعي الكفتة ولذلك فعلى البلدية أن تطالب برخصة نظامية ووثيقة تثبت أنهم (بائعي الكفتة) أنهوا الخدمة الإلزامية وأن يبرزوا تصريحاً من المصادر العسكرية بأنهم أنهوا الخدمة الاحتياطية أو أُعفوا من الدورة الاحتياطية.. لهذا كله.

قاطع الرسام ممثل مديرية الأحوال المدنية العقيد قائلاً: إذا سمحتم لي يا سيادة العقيد لقد فهمت... وثيقة إنهاء الخدمة الاحتياطية، فالواحد منا لا يعلم زمن دعوته للخدمة الاحتياطية وعادةً لا تأتي الدعوة إلا بعد الأربعين من العمر، وفي بعض الحالات لا تأتي أبداً، المواطن الذي يعمل ببيع الكفتة! يجب عليه أن ينتظر إلى ما بعد الأربعين من عمره فإن لم تأته الدعوة فلن يعمل بهذا الشيء أبداً.

نحن لا نستطيع أن نمنع مواطناً من بيع الكفتة أو غيرها فهذا الأمر مغاير لحقوق الإنسان وضد قوانين البلاد.

أعجبني الرسام كثيراً (عفارم) لأنه تحدث بما يمليه العقل والمنطق، تحدث طبيب الأسنان قائلاً: بالأصل أنا طبيب عسكري (ومع الأسف الشديد لم أشارك زميلي رأيه إذ تحدث عن حقوق الإنسان وقوانين البلاد وكرر ثانية مع الأسف لا أرى ما يجمع بين الدستور وبائعي الكفة، هل تستطيع أن تفسر ذلك؟ لأنني لم أجد مادة حول بائعي الكفتة في دستور البلاد.

قال الرسام: يا سيدي الكريم أنا شخصياً خدمت الوطن بصفتي ضابط شرف لكن لم أذهب إلى الدورة التدريبية لأنهم لم يدعوني - يعني أنا لا أستطيع أن أعمل بائع كفتة أليس كذلك؟.

صرخ العقيد المتقاعد: بالطبع لا تستطيع!.

فأجابه الرسام بغضب: أستطيع.

- إن كنت تستطيع... أرنا

- بكل سهولة أستطيع أن أقوم بذلك.

- قال طبيب الأسنان: الآن تستطيع، أرنا شطارتك عندما نجهز المذكرة.

- قال المهندس الزراعي: كم عاماً بقيتم في الجيش سيادة العقيد.
- وماذا يهمك؟
- أبداً... أبداً سألتك فقط لنغني النقاش.
- سبعة وعشرون عاماً.
هل دعوك للدورة التدريبية؟
- لا...
- إذن أنتم أيضاً لا تستطيعون بيع الكفتة.
- هذا الموضوع لا يخصني.
- طبعاً... ولكن...
- يعني تجدني لائقاً لهذا العمل.
- استغفر الله.
- دقيقة واحدة.
- لو سمحت دعني أكمل حديثي أنت لا تستطيع أن تُقلِل من قيمتي لأنك تحقّرني بذلك.
- عفواً... عفواً.

بدأ السيد عاطف بالحديث عندما رأى أن جو الحديث قد توتر كثيراً، يا سيدي إن زميلكم يعرض رأيه حول الموضوع، يكمّل حديثه.. ثم التفت نحوي وقال:
- وأنتم يا سيدي ما هو رأيكم؟.
عندما بدأت الحديث صّوب العقيد نظراته نحوي زاماً شفتيه مقطباً حاجبيه.

قلت: أرى أن الخدمة العسكرية مهمة جداً (والعقيد يواصل نظراته إلي) نعم العسكرية مقدسة... الخدمة العسكرية من أهم الواجبات الوطنية.

قال الرسام: نعم نعم.. نحن لم نقل شيئاً عن هذا الواجب. تابعت حديثي:إن الخدمة مهمة جداً بالنسبة إلي، ومن الضروري جداً أن يقدّم الراغب بهذا العمل وثيقة إنهاء الخدمة الإلزامية، لكنْ يجب ألاّ يجبر بائعي الكفتة على تقديم وثيقة إنهاء الدورة التدريبية. قال العقيد: هذا... هكذا.. أرأيت؟ لا اعتراض لنا على هذا الكلام.

قال الرسام: يعني أنا قلت غير هذا؟.
- أنت.. نعم إنك تشجع الفرار من الخدمة الإلزامية بكلامك، وفي الوقت نفسه يستطيع كل إنسان أن يعمل بائعاً للكفتة.

قال السيد عاطف: الآن أطلب - أصواتكم - هل الجميع متفقون على أن بائعي الكفتة يجب عليهم تقديم وثيقة إنهاء الخدمة الإلزامية؟.

من ارتفاع كافة الأيدي عُرف أن الجميع موافقون.

قال السيد عاطف: أصبحت الساعة الخامسة تقريباً، يا سادة أنهي جلسة اليوم آملاً إتمام المذكرات والمناقشات في جلسة الغد.

وقّعنا على محضر الجلسة ووقع طبيب الأسنان عن صديقه لاعب الكرة الغائب. كان علينا أن نكمل اجتماعنا صباح اليوم التالي في الساعة العاشرة.

وفي اليوم التالي لم يحضر أيضاً لاعب الكرة المشهورة. أما العقيد المتقاعد فقد وصل بالمناقشات إلى حلقة مفرغة لا نهاية لها باقتراحه إلا أنه أصر على ارتداء اللباس خارج أوقات العمل أيضاً.

وعندما طلب السيد عاطف أصواتنا للتصويت على الرأي وجدنا أنفسنا في جانبين متساوين، خمسة مقابل خمسة.

عندها قال السيد عاطف: لمثل هذه المواقف حُدّد عدد أعضاء اللجنة بالمفرد (أحد عشر عضواً) وغياب زميلنا ممثل دائرة الكهرباء وضعنا في موقف حرج. ماذا سنفعل الآن؟.

قال المجبّر ممثل دائرة اللوازم: إنه صديقي.. أعرفه جيداً، عندما يُصاب أثناء اللعب كنت أعالجه، كان يفتح صدره لي، ويحدثني بما يجب يكره، إنه لا يحب اللباس الموحد... لو سمحتم لي أن أدلي بصوتي بدلاً عنه.

قال طبيب الأسنان: هو صديقي أيضاً... ولكن أنت مخطئ بالتأكيد، كيف لا يحب اللباس الموحد وهو لاعب كرة وعلى هذه الحال يلبس كل لاعب اللون والزي الذي يريد... ليس صحيحاً ولا منطقياً أن يكون لاعب دولي كبير. لعب أكثر من اثنين وعشرين مباراة دولية – في منتخبنا الوطني، ولا يحب اللباس الموحد.

قال العقيد المتقاعد: الرجاء إنهاء مناقشات موضوع اللباس الموحد.

بدأ المجبّر بالحديث: بالنسبة لبائعي الكفتة السيارين اللباس....

قاطعه العقيد صارخاً سيّار أم غير سيّار... ليكن ما يكون.. المناقشات غير مسموحة بهذا الخصوص.

أراد السيد عاطف تلطيف الجو فقال: لنترك المناقشات حول هذه المادة عند عودة زميلنا الغائب لكي نأخذ رأيه شخصياً.

قدم العقيد المقترحات الكثيرة لتحضير هذه المذكرة الخاصة، وكانت إحداها تتعلق بعربات البائعين، وهي أنه على جميع العربات أن

تأخذ شكلاً ولوناً واحداً، ويجب أن توضع ليلاً في مستودعات خاصة تابعة للبلدية.

قال السيد عاطف: سنأخذ مقترحاتك مأخذ الجد يا سيادة العقيد، لكنك لم تعط رأيك وملاحظاتك كممثل لمديرية الحدائق، فهل تتفضلون بطرح ملاحظاتكم واقتراحاتكم (كممثل عن مديرية الحدائق العامة).

قال العقيد: طبعاً.. طبعاً... كما تريدون يا سيادة الرئيس، قبل كل شيء يجب أن يمنع الباعة المتجولون من دخول الحدائق العامة منعاً باتاً.

ويجب وضع لوحات مكتوبة على أبواب الحدائق العامة.

((ممنوع دخول بائعي الكفتة منعاً باتاً)).

قال القادم من مديرية النشر: يعني سيسمح لهم بدخول الحدائق الخاصة، أليس كذلك.

- يا سيدي موضوعنا يتعلق بالحدائق التابعة للبلدية.

تحدث زميلنا المهندس الزراعي، ممثل الجباية التابعة للبلدية، مطولاً ومفصلاً عن عربات الباعة السيارين والأخشاب التي صنعت منها، إذ يجب أن يقدموا رخصهم القانونية على أن الأخشاب غير مهربة وممنوعة، وأن أخشاب العربات قد بيعت من البلدية. وعلى مديرية الجباية التابعة للبلدية أن تفرض ضريبة إشغال الطرق وأجرة الأرض ورسوم صرفيات ورسوم الرخص وأجرة المعاينة (ذلك ما اقترحه المهندس الزراعي)

أما زميلنا معلم الفلسفة القديم (ممثل مديرية المياه) تحدث واقترح:

يجب على الباعة أن يكونوا حاصلين على شهادة الدراسة الابتدائية، فهذا الاقتراح يخفض نسبة الأمية في البلاد واقترح أيضاً: وجود صفيحة من الماء - كحد أدنى - مع الباعة.

قال مهندس الديكور: فهمت مغزى شهادة التعليم الابتدائية وفائدتها، لكنني لم أفهم مغزى طلب وجود الماء في العربات - هل ستستحم الكفتات؟.

- قال معلم الفلسفة: الماء يا سيّدي لغسل الأطباق (الصحون).

- ولكن البائعين لا يستخدمون الصحون، إنهم يضعون الكفتة على الخبز.

- ليس بالضرورة لغسل الصحون، ربما لغسل أيديهم.

- يا سيدي الكريم، نحن في استانبول لا نجد نقطة ماء واحدة في صنابيرنا خاصة في فصل الصيف - كيف - والحال هكذا - نطالب الباعة بحمل الماء، لم أعد أحتمل ما يقال.

- أنا معك يا سيدي.. هل تصنع الكفتات دون ماء؟ أليست بحاجة إلى الماء؟.

- إنها كفتات ناشفة.

- ولكن من أجل الحرائق.

- سيدي الماء.

- اسمحوا لي.

- لا تقطعوا حديثي رجاءً..

- المعذرة..

اقترح الطبيب ممثل مديرية اللوازم التابعة للبلدية على اللجنة:

أن يقدم الباعة تقريراً صحياً عن أجسادهم صادراً عن المشافي العامة التابعة للدولة يثبتون فيه بأنهم لائقون صحياً لهذا العمل، وأن عظامهم خالية من الكسور والخلوع قال ممثل مديرية النشر: يعني أن رجلاً أحدبا لن يستطيع القيام بهذا العمل؟.

- يجب ألاّ يعمل.

- لماذا؟ ولأي سبب؟.

- أولاً بسبب حاجة الإنسان إلى الجَمَال وهذا ما يؤثر سلباً على الحركة السياحية، فالأحدب والأعرج والأكتع يجب ألّا يعملوا في مجال بيع الكفتة أبداً.

- ا الله - ا الله.

- يا سيدي أنت محيّر.. من يفهم في هذا المجال أنا أم أنت؟. أرجوك أن تحترم الاختصاص.. إن هذا العمل غير صحيح من الناحية العلمية. عليك أن تثق بكلامي، فأنا موظف في البلدية ومديرية اللوازم، ويجب أن أكون على علم أو أعرف مقدار اللحم (الهبرة) الذي يأخذونه من الوزة...

- وما هي الوزة التي تتحدثون عنها؟.

- الوزة تعني: أن بائعي الكفتة بقدر مهارتهم وحذاقتهم في عملهم، فهم يصنعون العجين من الخبز البائت دون وضع أي مقدار من اللحم، ثم يقلونها بسمنة تاريخية فينتجون كفتة لذيذة جداً.

- وماذا تقصد بالسمن التاريخي؟.

- السمن الموجود في قلّاياتهم - أي السمن القديم جداً - أنا أسميتُ هذا السمن بالسمن التاريخي. فعلى زعمهم أن السمن كلما كان قديماً كان مذاق الكفتات أشهى وألذ، فبعض الباعة ورث الزيت

(الموجود في مقلاته) عن أبيه، ومن أجل هذه المذكرة قمت ببحث كامل عن هذا المنحى.

– ولكن يا سيدي.. كيف تصبح الكفتة كفتةً دون اللحم فيها هذا غير ممكن أبداً، أضف إلى ذلك فهم يضعون الخبز يوماً كاملاً مع عظام البقر في الدولاب (–) ونحن أعضاء هذه اللجنة – وفي البلدية، يجب أن نجبر الباعة على استخدام اللحم في صنع الكفتة، قال موظف مديرية النشر: لننتقل إلى موضوع اللحم فهو مهم جداً، ومن المعروف أن أكل لُحوم الحمير والخيول والبغال ممنوع لذا أقترح على اللجنة مراقبة الباعة ومنعهم من صنع الكفتة من هذه اللحوم.هذه المناقشات التي حاولت أن أوضحها لكم، دامت أياماً وساعات طويلة، إذ كنت أرتعد من الخوف خشية أن يأتي دوري في المناقشات والاقتراحات.

في البداية حسبت أن هذه اللجنة المشكّلة لإعداد هذه المذكرة الخاصة ستقوم بعملها. كيفما اتفق، وبسطحية ومناقشات قصيرة ومحدودة لأنهم لا يعلمون عن هذه الصنعة شيئاً، غير أنني كنت مخطئاً في تقديري.

ولكي تكون المئة ليرة التي سيأخذها كل منا في اليوم الواحد حلالاً فقد تطرقوا لأتفه الأسباب وقضوا الساعات الطويلة في مناقشة الموضوع من كافة جوانبه، إنهم لا يريدون أخذ المئة ليرة دون جهد، لذلك كانوا يناقشون ويتجادلون، – كل في اختصاصه – لوضع مواد عدة تتعلق بهذه المذكرة، وبمعنى أوضح كنا لا نتهرب، فموضوع بسيط يدخلنا في مناقشات طويلة، مثلاً: اقتراحات الرسام، ممثل مديرية الأحوال المدنية، حول ألوان العربات، واقتراح مهندس الديكور حول

شكل دواليب العربات، وهذا الاقتراحان دامت مناقشتهما يوماً كاملاً، كنا نأخذ الأمر بجد أكثر وكلما زادت الجدية زاد غضبنا من بعض.

وبما أنني أعمل في مديرية المقابر التابعة للبلدية، لم أجد صلة تربط بين عملي والمذكرة، قدمت اقتراحاتي من ناحية هندسية إذ قلت: إن الباعة يخدعون زبائنهم عن طريق الزجاج الذي يضعونه على العربات لأنه يضخم من الكفتات، اقترحت أن يكون زجاج العربات عادياً خالياً من الشوائب التي من شأنها خداع الزبائن، ومع الأسف هذه المادة الوحيدة التي اقترحتها وتمت الموافقة عليها من اللجنة وتم تصديقها، ولهذا السبب أنا منزعج جداً لأنني أخذت المال الذي لا أستحقه أبداً.

دامت المناقشات ستة عشر يوماً كاملاً، وتم وضع مئة وسبع عشرة مادة خاصة ببائعي الكفتة السيارين، ووفقنا في عملنا الذي بدأناه خير توفيق.

عندما قلت لصديقي رئيس البلدية: على كل حال سيبقى بائعوا الكفتة المتجولون في عملهم وسيتابعونه، لكن وجود مذكرة خاصة بهم في أيدينا أمر حسن، تُطبق حينما نريد، لقد أصبحت مذكرة جيدة وستبقى شاهداً على حسن ما فعلناه..

المذكرة التي جُهزت خلال ستة عشر يوماً والمؤلفة من مئة وسبع عشرة مادة من قبل لجنة مؤلفة من أحد عشر عضواً، تم صرف مهمات لها بلغت سبع عشرة ألفاً وستمئة ليرة، أما زميلنا لاعب الكرة المشهور، فقد حضر اليومين الأخيرين، وأنارنا بتوضيح بعض المواد المتعلقة بالمذكرة.

ربما اسودّت الدنيا في وجوهكم أو أحسستم بالغضب أو قلة الأمل تذكروا مذكرتنا هذه واقرؤوها فلن تحسّوا بعد ذلك بالزعل أو الغضب أو فقدان الأمل.

أما أنا فقد عملت في خمس أو ست لجان فيما بعد، وعدت إلى أمريكا لكنني لم أستطع مجاراة عملي القديم، لأن السنوات أمضيتها بتحضير المذكرات، تقدم خلالها علم العدسات كثيراً إذ أصبحت معلوماتي تافهة، وعدت لا أستطيع أن أكمل تعليمي فيه، عدت إلى وطني - ومع الأسف - وجدت أن رئيس البلدية قد تغير، ولم يعطني عمل أعيل به أولادي، افتتحت في أحد الأزقة الضيقة محلاً ورحت أبيع العوينات (العدسات) والولاعات والمظلات وأقوم بإصلاحها. ذلك كيلا أمد يدي طلباً لمساعدة من أحد. نحن هكذا دائماً.

في الوقت الذي يفترض أن يستثمر علمي واختصاصي وُضِعتُ في تحضير المذكرات الخاصة.

إنهم لا يفكرون أبداً.

* * *

خذوا حذركم الاشتراكية قادمة

قال: إنني استغرب بقاءك دون عمل في هذه المدينة العملاقة التي يعيش فيها أكثر من أربعة ملايين نسمة.

قلت: تقصد إنني واحد من الملايين الأربعة التي ذكرت... طيب ماذا أفعل؟ إنني أبحث عن عمل بشكل متواصل ولا أجده!..

- بالبحث وحده لا يجد الإنسان عملاً.
- وكيف يجده إذن؟
- ستخلق العمل لنفسك.
- (عال... عال) إذا كانت الدولة نفسها لا تخلق العمل - كيف لإنسان مثلي أن يخلقه.
- لقد خلقوا العمل لأنفسهم فأصبحوا المسيطرين على زمام الأمور.
- أنا لا أستطيع أن أصبح حكومة....

صديق قديم اسمه صباح الدين... التقيت به وسط الزحام في ساحة (أمين أدنو) تأبط ذراعي وأخذني إلى مقهى مكشوف أمام الجامع الجديد.

ونحن نشرب القهوة سألته: وأنت ماذا تفعل؟

قال: العمل الذي أقوم به لا يعرفه أحد. أجد عملاً لنفسي حسب مزاجي وهواي.

- ولكن يا صديقي هذا العمل بحاجة إلى رأسمال كبير... لقد ولّى الزمان الذي يعمل فيه الإنسان كثيراً ويدّر عليه بالقليل من المال.
- إذا شغّلت عقلك جيداً فإنك تبدأ بأقل من عشر ليرات... لم أتعطل في حياتي إلا عامين فقط، لقد عانيت الكثير وأخذت دروسا

كثيرة، من يومها لا أذكر أنني بقيت يوماً واحداً بلا عمل سكتنا دقيقة، وكالإنسان الذي يقع من السقف سألني: كيف علاقتك بالاشتراكية.

- ما الاشتراكية التي تقصد يا.... أليس لك عمل آخر.

قلت ذلك والعرق يتصبب مني.

- يعني هل تعرف الاشتراكية؟.
- اسكت بحق الله... إن سمعنا أحدهم (نبتلي بمصيبة) أنا لا أفهم مثل هذا المزاح.
- نعم.. نعم لقد فهمت من الطبيعي جداً أن تبقى دون عمل وأنت تفكر بهذا الشكل يا صديقي، هل تعلم أن الحديث الوحيد في تركيا الآن هو حديث الاشتراكية، في المقاهي والبيوت والصالات، الغني والفقير، الرجال والنساء، كلهم يتحدثون عن الاشتراكية، لقد أصبحت الاشتراكية و(التويست) موضة عندنا أيضاً، قبل خمسة عشر عاماً أخذت نصيبي من هذه الاشتراكية. في أحد الأيام، كنت ماراً في الشارع الذي أمرّ به كل يوم، رأيت مجموعة من البشر متمددين أمام باب أحد المشافي الحكومية إنهم يشبهون الأموات أكثر من الأحياء، كأنهم ينتظرون الموت المفاجئ من أحد الأوبئة، اقتربت من أحد الرجال المتمددين وقد افترش لحافه الوسخ المرقّع، عيناه غائرتان ووجهه أصفر كالقيح سألته:
- ماذا تنتظرون هنا؟.

ولكي أسمع جوابه، قرفصت قرب الرجل وفهمت منه أنهم مرضى ولعدم وجود مكان داخل المشفى أو أي مكان آخر يذهبون إليه فهم ينامون في العراء.

ذهبت إلى أحد الأفران القريبة واشتريت عشر خبزات وبعض العنب والبندورة ووزعتها عليهم، ووضعت في يد كل منهم ليرة تركتهم والألم يحز في نفسي، ركبت الحافلة وعندما نزلت في الموقف الأخير متابعاً طريقي، وإذ بأحدهم يدق على كتفي الأيسر.

- تعال معي لبعض الوقت.
- لماذا هل هناك شيء.
- هيا تعال يا....

لا أريد أن أطيل الحديث عليكم -- كان الرجل /من المخابرات/ أخذني إلى طاحونة، وهناك سألني: لماذا وزعت المال لهؤلاء الناس؟.

- لأنهم جياع، أشفقت عليهم وأعطيتهم!.
- هل أنت حكومة. يا...... حتى تشفق عليهم؟! ثم من أين أتيت بالمال الذي وزعته.

إن العمل الذي قمتُ به لا يفعله إلا المجنون أو الاشتراكي، وبما أنني لست مجنوناً... أعطيت مالاً دون مقابل ها.. ها يعني أنا اشتراكي.. وضعوني في الدولاب حتى أشبعوني ضرباً، أقول لهم لست اشتراكياً... لست... لست. يقولون أثبت العكس وكيف سأثبت لهم؟.

ولكي أثبت لهم ذلك طلبوا مني كفيلين (شخصين موثوقين) المهم بعد عشرة أيام من توقيفي توصلت إلى وسيلة أثبت لهم من خلالها أنني لست اشتراكياً... ومنذ لك اليوم عندما أسمع كلمة اشتراكي في أي مكان، أهرب من المكان وبسرعة.

قال زميلي: هل تعمل معنا؟.

- وما هو العمل؟.

- ولماذا تسأل المهم أن تعمل... أن تحصل على المال... لي صديق أعمل معه فأنا وصديقي لا نقدر على ذلك العمل لوحدنا وشريكي سيأتي بعد قليل ثم جاء الرجل الذي أسماه شريكه. عرّفني إليه قائلاً:

صديقنا هذا سيعمل معنا - إن كنت تراه مناسباً -.

غربلني الرجل بنظراته من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى ومرات عدة حيث قال: مناسب إلى حد ما، هيئته معقولة وله كرش أيضاً. قال صباح الدين قامته الطويلة منذ القدم. لكن كتفيه أصبحا أكثر عرضاً، وكبر كرشه مع مرور الأيام.

نظرت إلي وجهيهما بدقة. هل يسخران مني؟! لم أجد أثراً للسخرية ظاهراً عليهما. قلتُ: هل تقولان لي ما نوع العمل الذي سأقوم به؟.

قال صباح الدين: إنه سهل جداً. ستأتي معنا - ليس إلا... جرب بعض المرات، إذا أعجبك العمل بإمكانك أن تستمر.

- ما علاقة الطول والعرض بعملكم هذا؟.
- له علاقة كبيرة... أنا شخصياً قصير القامة، وزميلي ضعيف البنية والمكان الذي سنذهب إليه يحتاج إلى قامة طويلة وهيئة عريضة وشخصية جميلة. فنحن لا نعطي ثقتنا بسهولة للآخرين ولكن أنت ماشاء الله بهذا الطول والعرض والهيئة لا يشك بك أكثر الناس ظناً فمنذ وقت طويل ونحن نبحث عن شبيه لك.

كنت مفلساً لدرجة أنني لم أفكر في نوع العمل غير أنني سألت:

-كم سيكون راتبي الشهري.
- ليس راتباً شهرياً ففي الأيام التي نعمل فيها نتقاسم آلافاً عدة، فهمت أنه عمل تجاري... بعد ذلك سألني الرجل القادم:

- هل لديك معلومات عن الاشتراكية؟.
- بحق الله اتركوا هذه الاشتراكية. إنني أخاف من ذكرها وأعتقد أنه ليس عيباً أن يخاف المرء من شيء.
- آ آ آ... إنه عظيم جداً، لقد أصبنا الهدف.
- أتمنى ألا لا يكون عملكم هذا يغضب الحكومة في شيء.
- لا...لا أبداً، ولماذا نغضب الحكومة. يا عزيز كي تربح المال - في بلدنا - يجب أن تنظر إلى أنف الحكومة تماماً وتمشي.
- أرجو أن توضحا لي نوع العمل الذي تعملان به.
قال الرجل الذي لا أعرف اسمه: إن الأغنياء جميعهم يخافون من الاشتراكية.
قال له: وهل لهذا الأمر غني أو فقير، يخافون من الاشتراكية.
- صحيح من أجل هذا نقوم بالعمل... إنهم يرتعدون من الخوف والهلع تماماً كما تخاف الحيوانات من الزلزال فمن المعروف أنها تحس بالزلزال قبل وقوعه بوقت قصير ولهذا تراها تضطرب وتختلط مع بعضها، الخيول تصهل، والحمير تنهق، والكلاب تنبح، وأغنياؤنا يتحسسون من هذه الكلمة.
قال صباح الدين: إن مصيبة الاشتراكية كالزلزال والطوفان، إنها آفة وا لله يحفظنا منها، طبعاً إنها ليست آفة طبيعية إنها آفة اجتماعية.
أخرج الرجل من جيبه دفتراً صغيراً وراح يقرأ بعض الأسماء.... انتقى أسماء ستة أشخاص... كلهم من رجال الأعمال المشهورين ثم قال متسائلاً:
إلى أي منهم سنذهب هذا اليوم؟.

أوضح صباح الدين أن أحدهم موجود في أوروبا والآخر في أنقرة بقيت أربعة أسماء... توصل الإثنان إلى قرار للذهاب إلى أحدهم، خرجنا من المقهى وتوجهنا إلى مكتب البريد، اتصل الرجل بأحدهم وكان يتكلم باحترام بالغ حيث طلب منه موعداً لأمر مهم جداً واتفقا على اللقاء بعد يومين ثم طلب رقم رجل أعمال آخر واستطاع أن يتحدث مع سكرتيره، سجل السكرتير اسمه على أن يتحدث مع معلمه فيما بعد والرجل الثالث الذي اتصل به أعطاه موعداً بعد ساعة وفي نفس الموعد كنا في مكتبه، كان المكتب واسعاً جداً كأنه خان كبير.
كان الرجلان قد أوصياني بما يجب علي أن أفعله بأن أبدو أمام الرجل شخصية قوية وأتحدث معه بثقة ودون خوف. إذ يجب أن أجلس على (الكنبة) بالطول والعرض وأضع رجلاً فوق رجل وأهز قدمي بوجه رجل الأعمال يميناً وشمالاً. كنت قلقاً لما سيجري في الداخل من مناقشات.
لا بد أنه يدبر مقلباً ما، لكنني لم أكن أعرف دوري تماماً.
استقبلنا السكرتير وأخبر رجل الأعمال بقدومنا، دخلنا مكتبه ثمة رجلان على وشك الخروج، صافحنا الرجل ودعانا إلى للجلوس ثم توجه نحو الرجلين الواقفين وقال لهما: طبعاً طبعاً سندعمكم في كل المجالات لأنكم تحبون وطنكم بقلوبكم وامكانياتكم ضد هذه الميكروبات التي تقود الوطن إلى الهلاك.
قدم الشخصان شكرهما لرجل الأعمال وهما يتراجعان ثم خرجا.
جلس رجل الأعمال خلف مكتبه وأسند مرفقيه على زجاج المكتب ويبدو أنه وجدني لائقاً فتوجه بحديثه إلي.
- تفضلوا يا سيدي...

نظرت في وجه صباح الدين فإذا هـو يلحس شفتيه... قـال رجـل الأعمال: إني أسمعك يا سيدي.

لا أعـرف عمّـا سـأتحدث ومـاذا سـأقول وفي نفـس الوقـت الـذي جمعت فيه بعضي لأبدأ الكلام وإذا بصباح الدين يقف على قدميه مـاداً يده اليمنى إلى الأمام، بدأ الحديث كأنه ممثل قديم وناجح يقـدم عرضـاً مسرحياً.

- سيدي المحترم.
- أفندم...
- سيدي المحترم.
- أفندم.
- سيدي المحترم.. كما ترون مصيبـة كبـيرة علـى وشـك أن تلـف بلدنا يوماً بعد يوم.. إنها أمور خطيرة تأتينا من الخارج.

أكمل الرجل كلام صباح الدين قائلاً: تقود البلد إلى هاوية فـإنْ لم نـأخذ الاحتياطـات والتدابـير اللازمـة... أكمـل صبـاح الديـن: نهايتنـا ستكون وخيمة إذا لم نتداركها قبل فوات الأوان وكـل مـا سنفعله لـن يعود بفائدة. فأعداء المال والثروة يزدادون يوماً بعد يوم بهجومهم المبرر علـى القطـاع الخـاص وبرصدهـم للأمـوال الخاصـة يزرعـون الحقـد والكراهية ضد الأغنياء وهكذا يضخمون الاحساس بالعداوة.

- ويحلّون وحدتنـا الوطنيـة (الجملـة الـتي تظـل دون إتمـام يكملهـا الآخر).
- إن نيتهم.
- ضرب الشعب وجعله في طرفين متناقضين.

- ونيتهم بعد ذلك الوصول إلى مآربهم. وإذا لم نجـد الاحتياطـات والتدابير اللازمة فإن نهايتنا ستكون وخيمة، مع الأسف يجب أن نعترف بهذه الحقيقة. عند هذه الكلمة وقف زميلنا الثـاني بعصبيـة قـائلاً: نعـم نحن مجبرون على الاعتراف، لأن رجال أعمالنـا وأصحابنـا ذوي رؤوس الأموال الكبيرة في غفلة من أمرهـم.. كما تعلمون يا سيدي المحترم.

هؤلاء الاشتراكيون ينالون الدعم من أعداء هـذا الوطـن، ولتكونـوا على ثقة يا سيدي المحترم... إن مقدار الدعم الذي وصلهـم مـن الخـارج مليونان وثلاثمائة واثنان وأربعون ألفاً وسبعمئة واثنان وتسعون دولاراً، مقابل ذلك.

- ماذا نفعل نحن؟ أبداً نحن نقف في وجوههم بحبنـا الكبـير لوطننـا وقوة إيماننا دون خوف لماذا؟ لأننا ندافع عن مبدأ، لأن الدفاع عن مبـدأ مهمتنا نحن ولكن.
- يا سيدي يا من تحب الخير، إن أغنياءنا يجب أن يشاركوا في هذا الصراع.
- يجب ألاّ يتركونا لوحدنا.

بدأ رجل الأعمال بالحديث، وبدأ مشهد آخر.

- دون أدنى شك، أنتما محقان كثـيراً، يجب أن ندعمكـم، وهـذه مهمتنا وإلاّ..
- فإن البلد ستكون عرضة للخراب... أعداء النظام هؤلاء.
- لقـد دفعـوا المركـب للغـرق بـالدعم الـذي ينالونـه مـن الخـارج وأصبح لهم جرائـد ومجـلات يصدرونهـا، هـل قـرأتم مـا كتبتـه إحـدى مجلاتهم في عددها الأخـير يـا سـيدي "وداعـاً للسرقات بعـد الآن فلـن يستطيع أحد أن يأكل حق هذا الشعب الفقير".

كتبت هذا... ماذا تعني بذلك؟ بوضوح.
- إنهم يقصدون رجال أعمالنا المشهورين، إنهم يكتبون ودون خجل عنهم، عن هؤلاء الذين يفتحون مجالات عمل جديدة، ويساعدون على تقدم البلد.
يكتبون عنهم دون خوف أو وجل "النصابون الذين يعيشون على أكتاف الشعب".
طبعاً هذا الكلام واضح، وإلى مَنْ موجّه.
- نعم واضح... موجه لنا.
يجب أن نقاتلهم، الفكر بالفكر يا سيدي ولكن هم يأخذون الملايين ونحن...
ماذا سنعمل كي نصدر مجلة؟.
لتعتمدوا أولاً...
أما أنا تركت نفسي بالطول والعرض على الكنبة واضعاً ساقي على الأخرى محركاً قدمي المقابلة للمكتب... أخذت سيجارة من العلبة الموجودة على الطاولة.
جلس رجل الأعمال خلف مكتبه وضغط زراً، وقال للرجل القادم أحضر لنا القهوة.
جلس صديقي، أما رجل الأعمال فكان يتكلم بجديّة وهو يدق بأصابعه على زجاج الطاولة.
- ما هي طبيعة الصراع التي تفكرون القيام به.
- سنحاورهم عن طريق الفكر.
مللت هذه الجلسة الخرساء، فمن الضروري أن أتكلم قليلاً قلت: إن الاشتراكيين يقومون بدعايات واسعة ومن أصول الدعاية أنهم

يطرقون كل الأبواب، ويفعلون كل شيء، يجب أن نقوم بالدعاية المعاكسة.
قال صباح الدين: سنصدر مجلة تدافع عن مبدأ الرأسمالية وأردفتُ: إن الاشتراكيين بهجومهم على رجال أعمالنا الأعزاء يسقطونهم في عيون الشعب، يقضون على كل شيء عزيز لنا في هذا الوطن هزّ زميلنا الضعيف رأسه، كأنه يقول لي: أحسنت حيث قال:
- إنهم أعداء التاريخ، يخربون في ممتلكاتنا الوطنية الغالية.
قلت: وأخلاقنا.. نعم إنهم يتلفون أخلاقنا الوطنية يا سيدي قال رجل الأعمال: السادة الذين كانوا هنا حضروا للغاية نفسها يريدون دعماً مادياً لإصدار مجلة وواجب علينا دعمهم... طبعاً.
قال صباح الدين: إن إصدار مجلة في هذه الأيام ليس سهلاً يا سيدي، ونحن الثلاثة وضعنا أنفسنا وأموالنا لهذه القضية، قضية الوطن يا سيدي.
قال رجل الأعمال: أنا أفهم... يجب أن يزداد عدد الذين يقفون أمام هذا الخطر، ليظهروا للشعب الطريق الصحيح، الشعب... الشعب... الشعب فوق كل الأمور والاعتبارات.
- لإصدار مجلة.... لا يفي أقل من خمسين ألف ليرة.
نحن بأمسّ الحاجة إلى عون رجال أعمالنا الكرماء، لأنه، إذا لم تعطَ لنا هذه المساعدات الصغيرة الآن، فلن تفيدنا غداً بأي شيء، قلت: يجب أن تستيقظ من هذه الغيبوبة.
قال زميلنا الضعيف: ليُخلّدْ كل محب لهذا الوطن، أحد أغنيائنا تكرّم علينا بخمسة آلاف ليرة.

رجل الأعمال: أنا أساعدكم مساعدة صغيرة الحال، ثم أمر مدير حساباته - هاتفياً - بإعطائنا ستة آلاف ليرة.

عندما قمنا لنشكر الرجل وننصرف، دخل المكتب رجل بعصبية شديدة: لمن تُقرع هذه الأجراسِ يا سيدي؟.

قال رجل الأعمال مستغرباً: أية أجراس؟.

صرخ الرجل أجراس الهلاك... أجراس الهلاك... هذه الأجراس تقرع من أجلكم يا سيدي، ومع الأسف لا أحد يسمع.

لقد زاد الاشتراكيين أعمالهم وتحركاتهم، لماذا؟ لأن الذين يحبون الوطن في غفلة من أمرهم.

أوصلنا رجل الأعمال إلى الباب مودّعاً، ثم عاد إلى الرجل الذي تركه في المكتب، أما نحن ركبنا التاكسي وعدنا إلى المقهى المكشوف في حي الجامع الجديد وهناك تقاسمنا الأموال.

قال صباح الدين للرجل الضعيف: لنلعب دورين من النرد قبل الذهاب إلى (باي أغلو) وبدأنا بلعب النرد، وعندها فقط عرفت اسم شريكنا الثالث الرجل الضعيف نيازي.

قال نيازي: إلى أين سنذهب الليلة؟.

أجاب صباح الدين: هناك عرض رائع لثلاثة شبّان في (كرفان سرايا) كان بودّي أن أحركهم، إلا أن نيازي قذف النرد قائلاً: (أنت أيها العضم يا قليل التربية.... أيكي بير...

لأنني ذقت حلاوة المال قلت: إن الوطن يئن تحت الخطر، فجلوسنا ليس صحيحاً يا رفاق.

قال صباح الدين: لقد علمنا ما فيه الكفاية هذا اليوم - لأنفسنا علينا حق - بعد يومين لنا موعد آخر.

لمست المال الموجود في جيب سترتي من الخارج، كنت لا أصدق ذلك حلم جميل جداً، كنت مدهوشاً كيف يحصل أن يربح الإنسان هذا المبلغ الوفير بعمل صغير كهذا.

في تلك الليلة بقينا معاً، نلهو ونمرح في أماكن المرح واللهو، غير أني لم أدفع قرشاً واحداً من جيبي، افترقنا - على أمل - أن نلتقي بعد يومين في ذلك المقهى. لم أعد أذكر كيف وصلت إلى البيت بسبب السكر الشديد، بعد يومين ذهبت مبكراً إلى المقهى الكائن خلف الجامع الجديد، زملائي لم يحضروا بعد، بعد نصف ساعة حضر صباح الدين.

قلت له إن عقلي لا يستوعب هذا العمل.

- أي عمل تقصد؟.

قلت: إن هؤلاء الرجال أذكياء جداً، وإلّا لما أصبحوا أغنياء هكذا.

- طبيعي جداً.

- إذن كيف أعطانا الرجل هذه الآلاف الستة قبل أن نقول شيئاً.

- إنهم خائفون جداً... بمجرد أن تذكر كلمة الاشتراكية أمامهم يصابون بالهلع، وكل من يقول لهم سأقاوم الاشتراكية يرشوّن عليه المال رشاً، ولسنا وحدنا في هذا العمل هناك أكثر من عشر مجموعات تعمل وتعيش على طريقتنا هذه، لكن مجموعتنا هي الأقدم في هذا المجال. نحن أوجدناها مع شريكنا نيازي. إنه شاب ذكي جداً ومثقف كبير يتقن كافة العلوم، لقد جمع من الأغنياء أكثر من ثلاثين ألف ليرة وذهب إلى أوروبا ليقوم بأبحاث نظرية وعلمية وقد عاد منذ فترة قصيرة.

- وما هي هذه الأبحاث؟.

- ذهب يفتش ويبحث عن جذور الاشتراكية، كيف جاءت؟ كيف انتشرت؟ حيث ألقى عدة محاضرات عنها بعد عودته.

وهو الآن يقوم بتأليف كتاب سينشره قريباً، إلا أنه لم يستطع جمع المال اللازم لذلك، ولهذا السبب أغنياؤنا خائفون من انتشار الاشتراكية.

- مِن ماذا.

- كيف من ماذا؟... هؤلاء الاشتراكيون يقولون: لا مكان للاستغلال، لا مكان للاستعمار، ويقولون أيضاً: لا حياة لأحد على كتف الغير... ماذا يقولون أيضاً يا سيدي؟....يقولون العدالة الاجتماعية... إنهم يزدادون يوماً بعد يوم.

- متى سنصدر تلك المجلة؟.

- أية مجلة؟.

- ألمْ نأخذ المال من أجل ذلك.

عندها ضحك صباح الدين وقال: أمجنون أنت؟ ليس هناك شيء من هذا القبيل.

- وإذا ادعى أولئك الذي يدعون لنا - إنه نصب واحتيال؟.

- لا يا روحي - لا أحد يريد أن يدّعى - يعرفون كل شيء ومع ذلك فهم يدفعون... لا أحد يعلم ماذا سيحصل... وماذا يعني لو دفعوا ألوفاً في كل شهر لهذه الغاية، ألم تقل أنهم أذكياء طبيعي جداً أن يكونوا أذكياء.

جاء نيازي وركبنا التاكسي وذهبنا إلى رجل الأعمال الذي يملك نصف أسهم المصرف الذي دخلناه.

بمراسيم طويلة وصعبة استطعنا الوصول إلى رجل الأعمال.

أخرج نيازي من محفظته عدداً من الجرائد والمجلات، وقرأ لرجل الأعمال بعض المقاطع منها، وأعطاه البقية.

قال رجل الأعمال: أنا أيضاً أتابع هذه الجرائد والمجلات وأشكر لكم اهتمامكم وملاحظاتكم الدقيقة.

- ولكن يا سيدي خطر الاشتراكية بدأ يطرق أبوابنا - ولتكونوا على بيّنة - إننا مقصرون جداً في مقاومتها.

وبسرعة أردفتُ: يجب قطع رأس الأفعى وهي صغيرة.

قال رجل الأعمال: ونحن أيضاً لم نجلس دون عمل.. إننا نعمل بجد ولنا منشورات حول هذا الموضوع.

قال نيازي: نعرف ذلك يا سيدي... لكن هذا لا يكفي فهم يتغلغلون داخل الشعب ويحركونه، وننتظر الدولة لتقوم بكل شيء. إن قوات الأمن لا تستطيع السيطرة عليهم - لأن عملهم في غاية الدقة والنظام.

قال رجل الأعمال: هل تطلبون دعماً لمجلتكم، أم ستصدرون مجلة جديدة.

بادر صباح الدين بالكلام، نريد أن ننشر كتباً ونقيم جبهة عريضة ضدهم سنكشف هؤلاء الاشتراكيين أمام الشعب وسنريهم وجوههم الحقيقية، لأنهم يريدون إفقار الأغنياء وجعل الفقراء أشد فقراً وبؤساً، إن منشوراتكم علمية جديّة أما نحن سننشر كتباً من أجل الشعب.

- إنما تفعلون الخير... يجب أن يعرف الشعب أنهم أعداء الحرية نعم هذا الشعب يجب أن يتأكد بأن الغنى لن يأتيه إلا من الحرية، وبها يصل إلى أهدافه.

قلت: أنتم محقون جداً... محقون... يحطمون آمال هذا الشعب في أن يكون غنياً.

قال رجل الأعمال: يكون العمل مثمراً عندما تتنوع أشكال المقاومة، في الاسبوع الماضي جاءني عدة شبان وطلبوا العون لإنشاء جمعية مناهضة للاشتراكية.

– ولكن يا سيدي.. ومع الأسف الجديد لا أحد يقدم لنا العون، إن رجال أعمالنا لا يريدون مشاهدة الخطر المحدق أمام عيونهم بأي شكل من الأشكال.

بعد كل هذه المناقشات الحارة الطويلة أخذنا ثلاثة آلاف ليرة فقط أثناء خروجنا من المكتب تمتم نيازي:

– يا مخلوق يا حقير أنت يا... بهذه الحالة سيقطع الاشتراكيون أنفاسكم تكلم صباح الدين: في الماضي كانوا يعطون أكثر، أما الآن فقد كثر الطالبون للمال.

يا أخي يعني ماذا سيفعلون؟...

اشتغلنا ما يقارب الشهر هكذا... كما أوضحت لكم، كل يوم أو يومين كنّا نذهب إلى أحد رجال الأعمال ونقول: إما سنصدر مجلة أو سننشئ جمعية أو سنفتح مركزاً ونأخذ بضعة آلاف من الليرات. في أحد الأيام ذهبنا إلى أحد الأغنياء الكبار، لنطلب مالاً بحجة مقاومة الاشتراكية.

تكلم الثري: الجميع يأتون ويقولون سنقاوم الفكر بالفكر – ما هذا الفكر الذي يتكلمون عنه؟ لقد أصبحوا كالثيران الهائمةأين الفكر منهم؟ إذ كانوا لا يقرّون بالدين وا لله والعقيدة، فما معنى مجابهتهم الفكرية هذه؟ أعداء الحرية هؤلاء.

قلت: أنت محقّ يا سيدي أنا معكم في هذا الرأي أيضاً، ما معنى مجابهتهم بالفر، هؤلاء الذين يتربصون على ثروات الوطن، إنهم عديمو

الأخلاق فقال رجل الأعمال – الذي أعجبه كلامي – إن المال الذي نملكه كاد أن ينفذ وكل ذلك (من تحت رأس أعداء المال هؤلاء)، لقد أنشأنا جمعية تضم الشبان والأصدقاء لمجابهتهم، لكن الجمعية لا تكفي، مثلاً – كنت على وشك أن أفتتح مصنعاً كبيراً – باب رزق يعني – لكني لشدة خوفي من هؤلاء الاشتراكيين أرجأت هذا الموضوع يا ترى لمن يعود ضرر هذه العملية؟.

– للوطن يا سيدي.

– طبيعي جداً... لا لن أقوم بهذا المشروع كيلا يأخذوه منّي في نهاية الأمر.

يجب أن نقف أمامهم بطريقة أخرى، لقد جعلوا من هذا البلد الجميل والنظيف بؤرة للفساد والتعفن بعد أن فرقوا الشعب، أينما تذهب لا تسمع سوى الاشتراكية.

يا ناس هل كانت الاشتراكية موجودة؟. عندما كان آباؤنا الآوائل يركبون الخيول ويتبارزون في القارات الثلاث.

– لقد قلتم الحق يا سيدي.

– لقد أفهمونا في الجمعية بأن الاشتراكية موضة من القرن الثامن عشر والموضة لا تصلنا إلا متأخرة، هذا ما يجب أن يفهمه الشعب.

– نعم يا سيدي... لهم أذرع طويلة في كل مكان.

– صحيح إنهم يدخلون من كل الثقوب... هل تصدقون أن زوج ابنتي الوحيدة اشتراكي، لم أعلم بذلك إلا في المدة الأخيرة، سأفرقهما. لا أريد في عائلتي بشر لا ناموس لهم ولا أخلاق، إن كرامتي أصبحت لا تساوي شيئاً.

بقينا نستمع إلى ذلك الرجل الثرثار - أكثر من ساعتين - من أجل ألفي ليرة.

في أحد الأيام قال نيازي: إلى هنا وبس سنترك هذا العمل؟.

- لماذا؟.

- ألم تسمع ما يقولون؟ إنهم يتغيرون يوماً بعد يوم وفي الوقت نفسه يضيّقون من فتحات أكياسهم.

كان نيازي محقاً في كلامه، فالرجال الذين كنّا نذهب إليهم لطلب العون والمساعدة كانوا يقولون مثل هذا الكلام: الاشتراكية ليست خطرة لهذه الدرجة، أنا أيضاً اشتراكي ولكن بنسبة ثلاثين بالمئة، لكل شيء نهاية يا سيدي. إن شبابنا قد زاد ثقلهم علينا.

قال نيازي للرجل: أنا أيضاً اشتراكي إلى حد ما، وكما تفضلتم إن للاشتراكية حدود أيضاً، الواحد منّا يستطيع أن يكون اشتراكياً بنسبة عشرين أو ثلاثين حتى أربعين بالمئة لكل شيء حدود.

كنا نمرّ على الرجال الذين مررنا عليهم في السابق، وقد أصبحوا اشتراكيين إلى حد ما - وكلما ازدادت نسبة اشتراكيتهم قلّتْ مساعدتهم وصغرت، آخر رجل أعمال ذهبنا إليه قال: أنا اشتراكي بنسبة ستين بالمئة. بعدها قال لنا نيازي: - رفاق لقد وصلنا إلى نهاية عملنا.

فوصول نسبة الاشتراكية عند هؤلاء إلى ستين بالمئة يعني أن عملنا قد انتهى.

سألته لماذا؟.

- لأن رجال الأعمال هكذا.... يريدون شراء كل المستندات ليكونوا أصحاب الشركة، وكما ترون نسبة اشتراكيتهم تزداد يوماً بعد

يوم، قريباً عندما تصبح مئة بالمئة عندها سنحترق لاحظوا معي لعدم قدرتهم على مقاومة الاشتراكية، أصبحوا اشتراكيين كي يضربوها من تحت.

في تلك الفترة كنتُ قد جمعت مبلغاً لابأس به بدأت أحس بحلاوة جمع هذه الأموال بهذه الطريقة السهلة، لهذا قلت وأنا أذكر بطالتي ورداءة عيشي..

- إذن ماذا سنفعل؟.

قال صباح الدين: سنفكر بعمل جديد، سنوات طويلة مرّت ونحن نعيش هكذا، عشنا عامين كاملين (من وراء) جمعية لبناء المساجد وقبلها من جمعية للعناية بالأطفال اليتامى وجمعية لإحياء المقابر التاريخية وبعد ذلك من جمعية العناية بالعجزة... أعمال كثيرة قمنا بها حسب مزاج نيازي وهواه لأنه يحب المغامرة والمخاطرة.

قلت: ماذا لو ننشئ شركة تجارية.

قال نيازي: لانستطيع القيام بهذا العمل.

قال صباح الدين: إنها بحاجة إلى رأسمال كبير.

خلال هذه الفترة القصيرة جمعت أكثر من ثلاثين ألف ليرة وقتها كان معي خمس وثلاثون ألف ليرة (لأن الذي يأتي مع الريح يذهب مع الريح) كنت قد افتتحت مكتباً للاستيراد والتصدير بعد أن سجلت اسمي في غرفة التجارة، فعلت ذلك وحدي دون أن أشاركهم.

وقبل أن أخطو خطوتي الأولى، وفي الاسبوع الأول لشرائي المكتب جاء نيازي وصباح الدين وشاهدا المكتب حيث قالا: ليكن هذا المكتب مكتب خير وسعادة.

قال نيازي: لقد افتتحت هذا المكتب في وقت غير مناسب يا صديقي، قلت: لماذا؟.

- وتقول لماذا؟! ألا ترى أن الاشتراكية بدأت تأكل الأخضر واليابس.

وتدفع أمامها كل شيء، هؤلاء الرجال -أعداء الرأسمال فكلما ازددتَ ثراءً سيزادِ عدد أعدائك.

فكرت طويلاً لأن ما قاله صحيح، أحسست بخوف شديد قلت: ألا يحق للإنسان أن يرتاح في هذا البلد؟ لقد وضعوا نصب أعينهم مرابح الآخرين.

قال صباح الدين: مع الأسف كما قلت يا صديقي سابقاً.. إنك ستعمل جاهداً - شئت أم أبيت - على تضخيم راسمالك وعندها - هذا صحيح يا أخي - إن هذه الاشتراكية بلاء علينا - نعم إنها بلاء... ولهذا نحاول ايقافها عند حدّها - وبما أنك افتتحت هذا المكتب... نستطيع أن نصدر مجلة فيه، الإدارة تكون هنا، لأننا إذا لم نجابه الاشتراكية أكملت حديثه: سيكون الأمر خطيراً.

ربما سمعتم عن مجلة اسمها (استيقظ) كنا قد أصدرناها لعدد واحد فقط وذابت الخمسة والثلاثون ألف ليرة خلال عشرة أيام وضاعت - بشربة ماء -.

نيازي وصباح الدين - على الأقل - أكلا ما جمعاه، أما أنا فلم أحصل على شيء، ولم أصرف قرشاً واحداً من المبلغ الذي جمعته علماً بأن المكتب قد أخذ مني لأنني لم أدفع ايجاره.

في أحد الأيام وفي المقهى الكائن قرب الجامع الجديد جلسنا.

قال نيازي: هل معكم سجائر يا أولاد.

ردّ صباح الدين: لا سجائر ولا مال.

مددت له علبة سجائري فأخذ واحدة ثم قال وهو يشفط الدخان إلى أعماقه: إن ساحة عمل جديدة تظهر أمامنا يا أصدقاء.

قال صباح الدين: وما هي؟.

قال نيازي موجهاً كلامه لي: قل الصدق ألست اشتراكياً.

قلت: طبيعي جداً، أنا اشتراكي - إلى حد ما - ككل الناس.

- وأنت يا صباح الدين؟.

- لن أكذب، أُعَدُّ اشتراكياً بنسبة سبعين بالمئة.

قال نيازي: حسن... تعالا معي، سنعمل الآن لصالح الاشتراكية.

دفعت ثمن المشروبات ومشينا، عندما وصلنا إلى حي /توب كابي/ قال صباح الدين:

- شطارتك لا مثيل لها.

قلت: إنه ولد عاقل.

- إنه يشمّ جيداً ويعرف كيف يعمل بطريقته الخاصة تابعنا طريقنا ثانية لإيجاد عمل آخر نحن الاشتراكيين.

* * *

الآمانات المقدسة

في القطعة العسكرية التي كنت أخدم فيها، كان لي صديق في غاية الذكاء والحنكة وكنا نسميه (بَترْ عثمان) صديقي هذا كان قد رفض أداء دورة رقيب.

قلت له: لا تكن مجنوناً يا عثمان، ألم تسمع ما قاله الأولون: ((إذا أردت أن تعيش في بلدنا كن رأساً حتى لو رأس بصل)).

– ما ذكرت كان في القديم يا أهبل، كي تعيش في هذا الزمن مرتاحاً لن تكون رأساً ولا قدماً حتى، ستعيش دون أن يرى أحد ظلك، وتسرّح من الجيش قبل أن تأخذ راتباً واحداً. في الأوقات التي كنت أجلس معه.. كنت أفكر بالمستقبل وما يجب عليّ أن أفعله بعد انتهائي من الخدمة الإلزامية.

كان يقول لي: لا تزعج نفسك يا صدقي هكذا.. فالحمد لله الحمقى في هذا البلد الخير والبركة (دلالة على كثرتهم).

سبحان ربي الذي أقدم نفسي قرباناً له، من أجل أن يُبقي مخلوقاً ذكياً في هذه الدنيا، خلق عشرة آلاف من الحمقى.

عندما أنهيت خدمة الوطن، عدت إلى أصدقائي في استانبول، وفي أحد الأيام وأنا جالس في المقهى أفكر بوضعي... ماذا سأعمل؟.. وإذ بـ ((بتر عثمان)) يدخل من باب المقهى، في البداية لم أعرفه لكن عندما عانقني وهو يقول: ألم أقل لك... سأبحث عنك وسأجدك أينما كنت.

عرفته من صوته. كلانا غريب... مدينة استانبول غريبة عنا أيضاً ماذا تقولون بربكم؟ كيف وجدني هنا في هذا المقهى الساحلي النائي؟ قال بالتأكيد أنت عاطل عن العمل، عرفت ذلك من وجهك، وجلوسك في هذا المقهى يدل على ذلك.

سأعلّمك عملاً لتعيش منه مؤقتاً وتجمع بعض المال ليومك الأسود.

قلت: الله يرضى عليك دلني على هذا العمل.
- سنعمل كسينمائيين، ربحنا مضمون للغاية.
- احترتَ في أمرك ثانية.
- أعطني خمسين ليرة ولا تتدخل.
قلت له وأنا أخرج كل ما في جيبي وهو أقل من خمس عشرة ليرة.
- خذ هذا كل ماأملك.
- قال بتر عثمان: وأنا أيضاً أملك مقداراً معيناً، سنجمعهما.
أدخلني إلى أحد المحال في (قره كوي) في استانبول وقال لصاحب المحل: نريد آلة عرض مستعملة ورخيصة.
أخرج صاحب المحل الآلة التي طلبها عثمان، وهي عبارة عن خشبتين سوداوتين متقابلتين، في كل واحدة منهما لوحان من الزجاج. ثمة ثقب صغير في الجهة الأخرى توضع الصور فيه.
عندما تنظر إلى الصورة عبر العدسة، تبدو الصورة وكأنها تتحرك.
قال عثمان: هيا ثبّتْ عينك في هذا الثقب وانظر جيداً، عندما نظرت أصابتني الدهشة واحترت في أمري.. وكيف لا أحتار وقد ظهرت أمامي امرأة عارية ورجل عار تماماً وهما في وضع....!.
قال عثمان: ألم تر السينما في حياتك؟ إذ قلت له رأيت فإنه سيرفع رأسي عن الثقب، ولكي أنظر ثانية قلت له: لا شيء يستحق المشاهدة، قلت وأنا أثبت عيني وأنفي على الزجاج. يا له من رجل غريب الأطوار عثمان هذا؟... قال لي: إذا كنت لا ترى شيئاً يستحق المشاهدة لماذا تلتصق على الزجاج هكذا... هيا... هيا أنفك سيغطس!.
قال ذلك وهو يشدني من رقبتي ليبعدني عن الآلة. قلت له: الله يرضى عليك يا عثمان - دعني... توقف قليلاً (قليل الإيمان لم يرحمني).

قال: ولك يا أخي هذه الآلة سنشتريها - ستكون لنا - أنظر إليها حتى الصباح.
ثم ألتفت إلى صاحب المحل قائلاً: بكم ستحسبها علينا؟.
- لستما غريبين - من أجلكما - أربعين ليرة.
- يا أخي اترك الأربعين والثلاثين... هيا قل الكلمة الأخيرة.
عندما بدأ الاثنان المساومة وجدت الفرصة سانحة أمامي كي أشاهد بقية الصور، وضعت عيني على ثقب الآلة وبدأت أشهد الصور واحدة تلو الأخرى.
الله... الله.... الله ويا سبحان الله وما شاء الله.. لا أستطيع أن أصف ما شاهدت باللسان أو بالكتابة.
بعد جهد جهيد طلب صاحب المحل ثلاثين ليرة - ولم يكن لدينا سوى خمس وعشرين ليرة - ماذا سنفعل؟ رحت أرجوه كي يوافق على السعر.
- الله يرضى عليك يا عمي، القدماء قالوا ((مال البعض ودعاء البعض الآخر)). نحن غريبان.. خذ أو اقبل دعاءنا بإعطائك الصور والآلة لنا.
سيتربح أطناناً من الثواب وسيكون مقابل جنة الخلد. يجب أن تعرف هذا جيداً. بالرغم من الرجاء والدعاء فقد ظلّ قلب الرجل من حجر ولم يلنْ أبداً، ماذا أفعل يا ربي؟ أليس هناك حل آخر.. التفتُّ صوب الحائط وأنزلت بنطالي قليلاً - ومن دكة السروال الداخلي - أخرجتُ ورقتين من فئة العشر ليرات، ناولت إحداهما إلى صاحب المحل.

- كانت الورقتان متجعدتين من رطوبة العرق - أخذهـا وأرجعهـا إلى طبيعتها، قال بتر عثمان وقتها: نريد ((طقمين)) من الصور أيضاً أحدهما صور دينية والآخر صور عصرية.

أعطانا الرجل عشر صور دينية وعشر صور دنيوية.

أثناء خروجنا قال بتر عثمان:

- تعال... الآن سأعلمك الصنعة.

في غرفة صغيرة من فندق صغير في حي (توب قـابي) بدأ عثمان يفسّر لي ما يجب أن نفعله.

- الآن افتح اذنيك جيداً واصغ بجوارحك، ستفعل كل ما سأقوله لك وستحفظ غيباً كل ما تسمع من فمي... سنذهب إلى القرى النائية وسندخل مقهى كل قرية... ستبقى أنت صامتاً، اترك الكلام لي، سأقول لهم: جئنا إلى هنا لنريكم السينما يا أخوتي وأصدقائي، كل من يدفع خمسة قروش سيضع عينيه على الثقب ويتفرج، خمسة قروش لكل عشر صور، لكن هناك نقطة هامة فالعجائز سيشاهدون الصور الدينية والشباب الصور الدنيوية (لأن الشباب يحبون رؤية الصور الخليعة) سنتجول لمدة شهر فقط وسنرجع وجيوبنا مليئة بالمال.

قلتُ: كفى لقد فهمت.

كنت أتمنى أن ينهي عثمان حديثه بسرعة كي أشاهد الصور المتبقية قال: ماذا فهمت يا أحمق - حديثي لم ينته بعد، ستصغي إليّ أكثر - الصور ستبقى متسلسلة في الآلة ةيجب أن تحافظ على تسلسلها دائماً، عندما يضع المشاهد عينيه على الثقب ستدخل الصور متسلسلة وأنا أفسّر مضمون كل صورة - كما قلتُ لك لن تخطئ الترتيب أبداً هيا

لنبدأ التدريب، في البداية سلسلنا الصور الدينية، وكلما أدخلت على الثقب صورة كان بتر عثمان يفسّرها.

- أيها المواطن الكريم - هذا جبل عرفات المبارك - المسلمون يرجمون الشيطان... الحج فرض على كل مسلم، ومن لا يستطيع الذهاب إلى الحج فرؤيته لهذه الصور تكفيه، وسينال ثواباً كمن ذهب إلى الحج ويقول لي: بدّل الصورة.

- والآن أيها الأخ الكريم: - إنك ترى الكعبة المعظّمة، لا تنظر قبل البسملة... الآن أيها المواطن الكريم أصبحتَ كمن ذهب إلى الحج.

لماذا يذهب المسلمون إلى الكعبة؟ يذهبون لرؤيتها.. الآن أنت تراها ويقول لي: بدّل الصورة يا بني.

كان بتر عثمان يتحدث في كل صورة حديثاً مغايراً.

يتحدث حديثاً يقطع زمام القلب، حديثاً يدمع العيون جاء دور النّوع الثاني، كلما أدخلتُ صورة في الآلة كان صديقي يفسّرها.

- هذه الصورة التي تشاهدها أيها الأخ الكريم - الموديل الأخير لملكة بيكيني - انظر جيداً، افتح قلبك وعقلك والشاب الذي يرفع الملكة إلى الأعلى إنه طرزان وهما يتجولان في السهول والجبال وهنا تراه وهو يزيل شوكة انغرزت في جسم الملكة إنه يزيلها بأسنانه ثم يقل غيّر الصور يا بني.

أخي المواطن لا تندهش عندما ترى هذه الصورة، العجوز هذه هي الملكة الأم وهي تستحم بحليب الحمير كي تظل شابة كالحوريات، وكما ترى لباسها من الحرير الخالص، وجسدها أبيض كالحليب، وهذه

قطعة الحلوى التي أوصانا لقمان الحكيم بأكلها ويقول لي غيّر الصورة يا بني..

أيها المواطن الكريم، افتح عينيك جيداً وانظر... هذا الذي تراه... كررنا هذه التعليمات عدة مرات، وبعدها سألني بتر عثمان:

– الآن هل فهمت درسك جيداً؟.

– فهمت.

– إذاً هيا بنا إلى الطريق.

كانت إحدى النساء الموجودات في الصور العشر قد أعجبتني كثيراً قلت:

– أريد أن أتحدث معك في أمر يا صديقي.

– ما هو؟.

– ولك يا أخي.. بدلاً من عرض عشر صور لنعرض على القرويين تسعاً ولا علم لهم بذلك.

– ولماذا.

– لأنني أريد أن أحجز صورة لنفسي.. طبعاً لا يمكن أن أريها للآخرين، لم يقتنع بتر عثمان بكلامي.

– ولك يا أخي هل هي زوجتك الحقيقية حتى تغار عليها من الناس، امشي أمامي هيا.

بدأنا مشوار الطريق... سافرنا بالقطار زمناً وزمناً آخر (بالكميون) وزمناً مشياً على الأقدام وبعد مرور ثلاثة أيام وصلنا إلى إحدى القرى، قبل كل شيء تجول بتر عثمان في القرية وعاينها على الطبيعة في القرية مقهيان.. دخلنا أحدهما.. ألقينا السلام على الموجودين فيه، كان ردهم بارداً لم يهتموا بأمرنا.. رُبما لعدم معرفتهم بنا. على الجدار كانت

صورة رئيس مجلس الوزراء معلقة فوق الموقد، وقتها رفع بتر عثمان يديه نحو السماء – باتجاه الصورة – وبدأ بالدعاء – ليرضى الله عنك ولتدم فوق رؤوسنا... هيه أيها الرجل المبارك، هيه أنت الآن بمثابة والدنا، أنت الذي خلّصت هذه الأمة وهذا البلد – قبل مجيئك كنا لا نملك بنطالاً نلبسه وعند وصولك إلى الحكم – ونحمد الله ونشكره – فقد رأت، سيقاننا السراويل الله لا يحرمنا منك.

وإذ بالقرويين الموجودين في المقهى يرددون... آمين.

– ليحفظك الله لهذا الشعب – آمين.

– ليحفظك من كل الأخطاء.

– آمين.

بعد الانتهاء من الدعاء، التّف حولنا القرويون وأمطرونا بوابل من السلامات والأسئلة.

– ماذا تشربان؟ قهوة أم شاياً أم كازوزاً؟.

– من أين قادمان؟ وإلى أين ذاهبان؟.

– من أنتما... من أية عائلة وأية قرية؟

– وهل أنتما جائعان أو عطشانان؟.

قال بتر عثمان: نحن سينمائيان، نتجول في القرى والمزارع نعرض الصور والأفلام.

ثم وضع الآلة فوق المنضدة.

– بكم الفرجة؟.

هذه سينما مخصصة للمسلمين فقط – تشاهدون دون مقابل، لكن هديتها خمسة قروش.

كل من دفع خمسة قروش وقف في الرتل ينتظر دوره، بدأت أضع الصور المتسلسلة في ثقب الآلة، واحدة تلو الأخرى وعثمان يفسّر كل صورة.

– أيها المسلم.... الآن نلتَّ ثواباً كثواب الذاهبين إلى الحج الآن تشاهد نبع زمزم، كأنك تشرب منه وأنت تحس بالراحة والاطمئنان... "اقلب الصورة يا بني".

الصورة التي تشاهدون الآن هي مكة المكرّمة والنظر إليها دون طهارة أو ضوء – ليس مرغوب – ويعطي نتائج سيئة – وما ترى الآن صورة الحجر الأسود المبارك وفي هذه الصورة أيها المواطن العزيز... ترى الأمانة المقدّسة مقام سيّدنا علي – كرّم ا لله وجهه وهذا سيفه المسمى بذي الفقار والذي يقطع رأس خمسة آلاف كافر...

بعد أن جمعنا المال تكلم مختار القرية:

لن تذهبا هذه الليلة من هنا... لقد جهزنا لكما غرفة الضيوف في القرية – وفيها كل ما تطلبان من طعام وشراب وفراش.

قال بتر عثمان: شكراً لكم، لكن اسمحوا لنا القيام بجولة في القرية.

في عتمة الليل دخلنا المقهى الثاني، فوق الموقد عُلّقت صورة رئيس الوزراء الأسبق وهو الآن رئيس حزب المعارضة، بدأ بتر عثمان بخطاب وهو يلقى نظرة على الصورة.

– هيه أيها الإنسان المبارك هيه، لأن الغافلين لم يعرفوا قيمتك وصلنا إلى هذا اليوم – يوم كنتَ على رأس الحكم كنا نلبس البنطال والحذاء أما الآن وكما ترى لا نلبس إلا الثياب المهترئة المرقعة، وإذا كنا بشراً حقيقيين يجب أن نعود بك إلى رأس الحكم ثانية بإذن ا لله تعالى.

وكما حصل في المقهى الأول أمطرت علينا فناجين القهوة والشاي، وبدأنا بعرض الصور وكل من شاهدها مرة كان يحاول أن يشاهد ثانية وثالثة، جمعت مبلغاً حتى أنني لم أستطع اللحاق بالجمع.

في المساء أكلنا وشربنا ونمنا في غرفة الضيوف التابعة للقرية، عند الصباح جمعنا شباب القرية واتجهنا صوب البئر الذي يبعد قليلاً عن القرية، وهناك وضعنا المكنة فوق العشب، وبدأنا بعرض الصور الخليعة للشباب، كل من دفع خمسة قروش ينام منبطحاً على الأعشاب ويثبت عينيه في ثقب المكنة ويشاهد.

– هذه الفتاة التي تراها في الصورة هي ملكة جمال العالم بذاتها، وهذا الذي يمسك بها ويثبتها هو بطل العالم الألماني المشهور ويحمل النطاق الذهبي في المصارعة وكما ترى، الفتاة تريد الهروب وقد تمزق فستانها وبقيت قطعة منه في يد البطل.

وهكذا لم نترك قرية إلا وذهبنا إليها ونحن نجمع ذات الخمسة قروش، وفي مدينة أخرى نصرفها بالليرات ونبيع البيض الذي جمعناه من القرويين الذين لا يملكون المال.

عشنا أيام جميلة، نأكل ما لذّ وطاب وننام في فراش وثير ونجمع الشيء الكثير.

في أحد الأيام بعد أن أنهينا عملنا في إحدى القرى، ونحن نجهّز للعودة وإذ بأحد الشباب الذين أحبونا يقول:

– سيدي: القرية التي ستمرون بها في طريقكم إياكم إياكم أن تعرضوا الصور التي تعرضونها للشباب، لأنه لا فرق بين عجائز وشباب تلك القرية، فإذا ما وجدوا معكم الصور الخليعة سيكون موقفكم صعباً للغاية.. وتذهبون بشربة ماء وكما ذكر لنا الشاب فإن أهل تلك القرية

لم يكونوا منحازين لأي من الحزبين المتنافسين بل كانوا من حزب رئيس الجمهورية.

ولعلمنا المسبق بتطرفهم الديني دخلنا المقهى بأدب واحترام. وعند دخولنا أطلقنا جملة " سلام عليكم" واضعين يدنا اليمنى فوق قلبنا مع انحناءة صغيرة ثم تكورنا في زاوية وجلسنا، وبما أن كافة الموجودين في المقهى لهم ذقون فتمييز الشاب من العجوز صعب جداً.

لا صور على الجدران سوى آيات قرآنية، وأدعية كتبت بأحرف عربية كبيرة.

بعد فترة قصيرة اقترب رجل يبدو أنه إمام القرية وقد أطلق ذقنه، حسب السنة الشريفة.

- هل أنتما بائعان متجولان؟ أم مبيّضان للآنية؟ أم ماذا؟.

وبعد علمنا بأن ذكر السينما والرسوم والصور من الأشياء غير المرغوبة في هذه القرية وتعد بمثابة ذنب كبير.

قال بتر عثمان: لا يا عمي الشيخ... لسنا بائعين متجولين ولا مبيّضين للآنية ولا غجر، خرجنا في طريق الله، كي ننال ثواباً كبيراً لأننا نحمل رسوماً دينية وهي الأمانات المقدسة، نعرضها لإخواننا في الإيمان لننال ثواباً كما قلت، ونحن والحمد لله لا نبتغي إلا مرضاة! لله ننتقل من قرية إلى أخرى ولا نترك فرضاً من الفروض الخمسة، دائماً نذكر الله، أضف إلى ذلك نحن مواطنان أصيلان من مواطني هذا البلد.

قال الإمام مستغرباً: الأمانات المقدسة، هل معكم صور البُردة الشريفة، وذقن الرسول الشريف والقدس الشريفة، ومكان مولده الشريف.

هيا أرنا هذه الرسوم.

عندما مشى الإمام بسرعة نحونا انقطع الحبل الذي كان يربط ركبي (من شدة خوفي) في الوقت نفسه وضع بتر عثمان المكنة فوق الطاولة وهو يقول:

- تفضل وشاهد أيها الإمام الشيخ.

كنتُ قد وضعت الصور الخليعة في أسفل الخرج تماماً تحت البيض أخذت الصور المقدّسة ووضعت الصورة الأولى في الآلة، أما الإمام فقد ثبّت عينيه على الثقب بعد أن رفع أسفل جبته، ومن النظرة الأولى أخذ نفساً عميقاً وهو يقول يا مبارك؟ وبتر عثمان راح يصب الكلام صباً، هذه الصورة التي تراها يا سيدي هي صورة أحد الأئمة الصالحين في حجرة من حجرات جامع الأزهر الشريف المدرسة التي تخرّج الأئمة والشيوخ الفقهاء.

بعد أن تنفس الإمام ثانية قال:

إنك على كل شيء قدير... أيها الإله الذي أقدم نفسي قرباناً له، وبدأ يرتجف بشدّة وبشكل غير عادي، عندها شككتُ في الأمر وعندما ألقيت نظرة إلى الصور التي في يدي.... يا إلهي ماذا أجد؟ يا للمصيبة... يا للهول.. ماذا فعلت؟.

لقد وضعت الصور الخليعة بدلاً من صور الأمانات المقدسة والصور التي يراها الإمام هي الصور الخليعة.

وعثمان الذي لم يدر بالمصيبة كان يتكلم ويشرح:

- هذه الصورة التي تَراها يا عمي الأفندي هي صورة أحد الأئمة يأكل بلحاً وزيتوناً كل يوم.

قال الإمام بكل تأكيد سيأكل... ولماذا لا يأكل؟ ليطعمنا الله جميعاً ما لذّ وطاب، وأخذ نفساً عميقاً وأطلق كلمة يا مدد...

أما بتر عثمان الذي لم يحس بشيء بعد قال بدّل الصورة في الوقت الذي قال فيه بتر عثمان هذه الكلمات، قبض الإمام يدي وهو يقول: با لله عليك توقف قليلاً يا بني، توقفْ لنشاهد ثانية بعين الدنيا قال ذلك وهو يركز عينيه جيداً على الثقب.

بدأ عثمان بتفسير الصورة الجديدة:

– النظر إلى هذه الصورة دون البسملة ذنب كبير والناظر دون وضوء يصاب بالشلل ومن يشاهد هذا المنظر ينال من الثواب كأنه حج إلى بيت ا لله الحرام، وكأن الشيخ يزداد ارتخاءً، قال أحد الجالسين عندما رأى حاله بهذا الشكل ما الذي جرى لك أيها الشيخ؟ هل نظرت بلا وضوء.

عندها أنَّ الشيخ قائلاً: آه... أيها الإله الذي أقدم نفسي قرباناً له اقتربتُ من بتر عثمان وهمست في أذنه:

– ولك يا ابني احترقنا... ها أمسك المكنة وزيت مفاصلك جيداً لنهرب من هنا، فالصورة التي تفسرها بأنها الجامع الأزهر والحجرة الموجودة هي نفسها المرأة العارية التي تأخذ حماماً ساخناً مع العملاق، عندما نفخ عثمان وهو يقول:

– تفوه... إذا ذهبنا إلى آخر المعمورة، سيمسكون بنا ويحرقوننا.

– با لله عليك يا أخي لا مجال للانتظار، لنهرب قبل أن نخسر كل شيء على الأقل لنخلص بجلدنا.. سيسلخون جلودنا ويحشونها بروث البقر والحمير.. تفوه – قال عثمان: الخوف لا يميت الإنسان لننتظر بعض الوقت عندما تأخذ إشارتي وقتها اركض ودون توقف. ثم التفت نحو الإمام وقال: أعتقد أنك شاهدت الرجل الصالح جيداً يا عمي؟.

– نعم شاهدته جيداً يا بني ليرض ا لله عنك أعتقد أنه يستحم أليس كذلك؟.

– نعم.. نعم لقد أصبت يا عمي... المسكين ضاجع الشيطان الأعرج في منامه، اقلب الصورة. وضعت الصورة الجديدة وعندما رآها قال من أعماقه دخيلك وكاد أن يقع على الأرض لولا تمسكه بجسمي... وبتر عثمان ثانية بدأ بتفسير الصورة.

– أما هذه التي تراها يا عمي فهي إحدى زوايا الجنة، وفيها حور العيون. وقطع الإمام كلام عثمان: تماماً كما جاء في الكتاب يا روحي.

– لا خلاف بيننا يا عمي الشيخ... لنبدّل الصورة وبدأ بتفسير الثالثة.

– أما هذه الصورة يا عمي الشيخ هي مفخرتنا.

– ليحفظها ا لله.

كان الشيخ يسأل عن بعض الصور التي لم يفهمها.

– أين يقع هذا المرتفع يا ولدي؟.

– المرتفع أليس كذلك؟... إنه منظر من طور سيناء يا عمي.

– لقد أعجبني هذا المنظر... إنه في غاية الجمال... عفارم عليك يا مبارك دخيلك.

وهذه الهضبة يا ولدي؟.

– هذه الهضبة... إنها جبل بركات.

– منظره جميل جداً... وهذا المكان الموحش؟.

– إنها قلعة الدم يا عمي الشيخ.

كنت أنتظر نتيجة مشاهدة الشيخ بخوف ولهفة، أما بتر عثمان فراح يطيل الحديث أكثر إلى أن انتهت الصور العشر.

قال الإمام: لن يكون هذا أبداً... أعيدوا الصور ثانية كي تأخذ عيوني قليلاً من النور. مرة ثانية، نعم شاهد الإمام الصور الخمس مرات متتاليات و لم يبتعد عن المكنة، الطامة الكبرى كانت في المجتمعين وراء الشيخ ينتظرون أدوارهم قائلين.

– هيا أيها الإمام... هيا أترك المكنة، قليلاً لنشاهد نحن أيضاً. يا الله ماذا سيحصل الآن؟.

وقف الإمام فجأة ونظر إلينا: ولك أيها الملعونان – يا أولاد الكفرة أليس لكما ذوق وحياء – جئتما إلى هنا لغواية المسلمين... مشيت إلى الأمام بعد إشارةٍ بتر عثمان لكن الإمام نادى: أغلقوا الباب وقطعوا علينا الطريق فوراً.

قال الإمام: ليخرج الجميع إلّا الهيئة الاختيارية.

وبقي في الداخل الإمام، والهيئة الإختيارية في القرية وبعض الوجهاء أما نحن فقد كنا بحالة يرثى لها – كنت كالمشلول مرمياً على أرض المقهى وعثمان وجهه أصفر كوجوه الأموات.. يرتجف هلعاً.

اجتمع الباقون في المقهى حول المكنة يريدون مشاهدة الصور وكل من يمسك الآلة لا يريد تركها وسيكسرها وكل من ينظر من خلال الثقب يرفع بصره نحونا ويبدأ بالسباب.

– ولك يا أعداء العرض والناموس ووو ما هذا؟ ماذا يفعل هذا الرجل ياهو، توقف يا أخي توقف قليلاً لم أرَ شيئاً بعد، يا قليلي الإيمان والدين!.

قال المختار بعد مشاهدة الصور: يجب أن نخبر /الجندرمة/ إنكما جاسوسان وهذا واضح من المكنة التي معكما يا روحي.

ربطونا بحبل وحبسونا في حظيرة صغيرة، في صباح اليوم الثاني جاء فارسان من الجندرمة، وبطرف الحبل الذي يلفنا سحبنا الفارسان، مشينا نهاراً بكامله حتى وصلنا إلى المخفر (قره كول).

بعد أن شاهد رئيس المخفر الصور عدة مرات قال: اتركوا المكنة والصور هنا.. أما هذان فضعوهما في السجن.

صباح اليوم التالي طلبنا رئيس المخفر، ستقومان بتنظيف المخفر ولا أريد أن تبقى ذرة واحدة من الغبار.

من شدة خوفنا، نظفنا المخفر على أكمل وجه حتى أصبح لا معاً من جميع أطرافه. ثم اتصل رئيس المخفر بزميل له في مخفر ثانٍ هاتفياً وأخبره: لقد قبضنا على سينمائيين سأرسلهما إليك.

قادنا شرطيان إلى المخفر الثاني وليرضى الله عنهما فلقد أعطيانا المكنة والصور إلا اثنتين من الصور الخليعة.

شاهد رئيس المخفر الصور، وفي صباح اليوم الثاني قال:

– هيا نظف المخفر والزجاج ولا أريد أن أرى ذرة غبار واحدة، ومن خوفنا الشديد شمرنا عن ساعدينا ونظفنا المخفر بشكل جيد. أعطنا المكنة والرسوم... رسوم الأمانات المقدّسة، أما الرسوم الأخرى فكانت ناقصة ثلاثاً، ثم قادنا الشطيان إلى مخفر آخر، وهكذا من مخفر إلى مخفر كنا ننظف قبل أن يطلبوا منا ذلك حتى ضاعت كافة الصور الخليعة، و لم نعرف مكان وجود الآلة وماذا حصل لها؟.

في المخفر الأخير الذي وصلنا إليه وبعد أن ضاعت كافة الصور تكلم بتر عثمان بجرأة ودون خوف: يا سيدي لقد نظفنا كل مخافر المحافظة، اتركونا وشأننا عندها غضب رئيس المخفر وقال: ولك أين

عملكم ومرابحكم.. أين جزدان الضريبة؟ أين رخصتكم؟ أين وثيقة معاينتكم ثم نالنا فلقة - على كيفك - بحزام البارودة.

عندما أفقنا من غيبوبتنا وجدنا أنفسنا مرميين بين الصخور والأحجار فتحت عيوني لأرى بتر عثمان يبتعد عني وهو يعرج دون أن ينظر إلى الوراء حاولت الوقوف على قدمي لكن دون فائدة، حاولت أن أصرخ لكنّ صوتي لم يخرج أبداً..

وذهب بتر عثمان: ذهبت دون رجعة، ولم أره بعد ذلك... ولم يبق معي من المال الذي ربحناه شيئاً.

أسندت ظهري على صخرة وأخرجت من داخل سروالي الداخلي صورة من تلك الصور (؟!) التي أعجبتني مدة ورحت أنظر إليها وأطيل النظر.

* * *

المرأة الأولى التي فهمتني

ذلك المساء كنت مدعواً إلى بيت أحد الوزراء السابقين ويجب أن أعترف بشيء لإظهار الحقيقة ليس إلاّ.
هؤلاء الذين يُسمّون بالوزراء سواء كانوا من أصدقائي أو غير أصدقائي طيلة بقائهم في الوزارة لا يدعونني إلى منازلهم أو مكاتبهم أو مكان وجودهم أو يأتون لزيارتي في منزلي إلا بعد أن ينتهي عملهم في الوزارة... بعضهم يتذكرني.. ليحفظهم الله... كانت الفيلا القديمة للسيد الوزير تقع على هضبة خضراء جميلة على ضفاف بحر مرمرة تتماوج خضرتها مع زرقة البحر الصافية. عندما وصلت إلى الفيلا وجدت صالة واسعة وحديقة جميلة، كانت الصالة والحديقة ممتلئتين بالضيوف الذين يتهامسون (ويدردشون) ويشربون ويضحكون.
ظهر القمر مبكراً وراحت أشعته الفضية تنعكس على البحر والأشجار، (الشيء الذي يعرفه الله لماذا نخفيه عن الناس).
حالي معلوم لدى الجميع، فالخجل والإنعزالية والخوف صفات موجودة فيّ، بدلاً من الاختلاط بالضيوف الذين يوزعون قهقهاتهم في كل مكان -رجالاً ونساءً- حشرت نفسي في زاوية نائية من الحديقة.
قبل أن يراني أحد الموجودين جلست على إحدى الكراسي الثلاثة الموجودة تحت شجرة كبيرة من الصنوبر حيث تدلت مجموعة مصابيح ملونة من بين أغصانها ومهمتها كانت محصورة في إزاحة الجمال الحقيقي لتلك الليلة المقمرة.
قبل أن أحضر إلى بيت الوزير السابق مررت على أحد أصدقائي واستعرت منه كتاباً أبحث عنه منذ زمن طويل، وهو موجود معي في بيت الوزير مما سبب لي بعض الإحراج والخجل.

لست أدري... كيف حصل ذلك؟ أنا أصلاً لا أحب الذهاب مع الكتاب إلى المدرسة والكتاب الذي أتأبطه جلدته أسمك من أوراقه.
وضعته أمامي على الطاولة الحديدية، قلت في سرّي: بعد أن تهدأ هذه الضحكات الباردة والمناقشات الحارة أدخل الصالة فأسلم على صديقي الوزير القديم.
ثمّة رجل يقترب في الظلام -وهو يحمل صينية فيها أقداح من الشراب - لاحظ الخادم وجودي في هذا المكان شبه المعتم، ناولني قدحاً من الشراب حسبته شراب البندورة، كنت أحس بعطش شديد في هذه الليلة الحرّة الخانقة - أنزلت عصير البندورة المثلج دفعة واحدة إلى جوفي.
أحسست بحرقة شديدة في أعماقي وتطاير الشرر من عيوني. لا شك أنه شراب لا أعرفه، وضعت الكأس فوق الطاولة. من صوت تكسر الأعشاب اليابسة تحت قدم تقترب نحوي ثم تبتعد وتدور حولي - كنت أستطيع أن أرى في هذا الجو الشبه مظلم -لاحظت أنها امرأة، توترت أعصابي في دورانها حولي لأنني منذ وقت طويل أخاف النساء وخاصة الجميلات منهن.
حسبت أنها جاءت لتهزأ بي، ربما سبب هذا الخوف عدم ثقتي بنفسي تجاه النساء وهذا نابع من حبي الفاشل الأول والأخير.
قبل خمسة وعشرين عاما مضت. كانت فتاة جامعية ذهبت معها في أحد الأيام إلى الجزيرة الكبيرة... في كل مرة كنت أحاول أن أفاتحها بحبي وهيامي لم أفلح في ذلك، فأحدثها بأمور تافهة.. فكانت تسخر مني دائماً؟ أما في ذلك اليوم فقد كان قراري صارماً.

نزلنا الشاطىء من فوق الصخور العالية وجلسنا على صخرة غمر نصفها بالماء وبعد أن بلعت ريقي عدة مرات، بدأت دقات قلبي تتحول إلى كلمات، لم أكن أنظر إليها، كانت تجلس إلى يميني رأسي إلى الأعلى وعيني نحو الأسفل، كنت أهمس بأحلى كلمات الحب والغرام... والله يعلم كم من الوقت مرّ وأنا أتكلم، لم أميّز الساعة لكن ظل الصخرة انسحب عنا ليتركنا تحت أشعة الشمس، ماذا حصل لا أذكر كانت تسمى (خاندان)، كنت أتوقف عن الكلام بين فترة وأخرى كي أسمع جوابها وهي لم تتكلم أبداً ربما من خجلها؟.. حيث أبدأ الحديث ثانية دون أن ألتفت إليها. كانت الشمس تغيب وراء الأفق الممتد فوق سطح البحر.. سكتُّ ونتيجة جلوسي الطويل فوق الصخرة الحادة المدببة تيبست أطرافي السفلية خمنت من سكوتها أنها قبلت حبي وغرامي تجرأت وقتها -ولأظهر رجولتي - رفعت يدي اليمنى دون أن أنظر إليها لألفها من أي مكان في جسدها.. رأسها.. ظهرها... صدرها... المهم أن أبرز لها صورة عن رجولتي وجرأتي، وما إن قذفت يدي حتى وجدتها تسقط في الفراغ. خلّ توازني وسقطت من على الصخرة إلى البحر مباشرة، والأسوأ من هذا كله إنني وأنا أقذف يدي نحوها كنت أناديها:

- خاندان... تكلمي أنت يا خاندان... ردي علي.. سقطتُ في البحر وأنا أردد هذه الكلمات بأنين حاد.. وكان جوابها قهقهة حقيرة وصلت إلى أذني من فوق صخرة عالية، حاولت أن أحرك رجلي داخل الماء لكن لم تتحرك من شدة تيبسها، بدأت أخبط الماء بيدي كيلا أغرق، وعندما شاهدتني على هذه الحال نَزلَت من على الصخرة العالية واقتربت مني وهي تقفز من صخرة إلى أخرى.

سحبتني من يدي ودموعها تسيل على خديها من شدة الضحك حتى وقَعَت فوق الصخرة وراحت تتقلب وهي تقول:

- كيف وقعت هكذا؟ هل كنت نائماً فوق الصخرة؟.

لا بد أنها تركتني منذ وقت طويل وأنا أثرثر لنفسي بكلمات الحب، قالت وهي تضع يدها على خصرها: هل تألمت كثيراً.

لم أستطع أن أقول كلمة واحدة... ركبنا الباخرة وافترقنا فوق الجسر منذ ذلك الوقت وأنا أخشى كيد النساء وعدم زواجي حتى الآن نتيجة لذلك لنعد الآن إلى قصتنا... ولكي أتخلص من هذه المرأة التي تدور حولي وتدور قررت أن أبتعد عنها وأجلس في مكان آخر، وقبل أن أتحرك جلست بجانبي وقالت: يا حسن بك أنت كالرجال العظام تماماً يحبون الجلوس وحيدين، حاولت أن أعرف (هذه التي تعرف اسمي) التفت إليها لم أعرفها و لم أشبهها بواحدة عرفتها أو رأيتها من قبل ولأنه من الواجب الرد عليها قلت لها: مثل ماذا يا أفندم؟.

أنا هكذا دائماً - كي أكسب بعض الوقت لسؤال يربكني استعمل هذه الجملة الاستفهامية التي لا تعطي الجواب المطلوب.

قالت: يا للغرابة!!.

كررتُ: مثل ماذا؟.

-جميع الفنانين الكبار يحبون الجلوس وحيدين يا حسن بك .

-مثلِ ماذا؟.

-مثلاً... هل تسمح لي بالاقتراب والجلوس إلى جنبك.

-عفواً تفضلي.

-بعد أن جلست قربي تماماً قالت: هل تعرف يا حسن بك.. منذ زمن طويل وأنا أترقب هذه المقابلة بفارغ الصبر.

-إذن أنت تعرفينني.
-ولو يا أفندم... وهل هناك إنسان لا يعرفك.. الدنيا كلها تعرفك.!!
إحساس دافئ جميل بدأ يتغلغل في أعماقي.
حاولت أن أتكلم -أن أقول بعض الكلمات -إلا أنني لم أستطع.
-إنني أعيش أجمل ليلة في حياتي، لأنني تعرفت عليك ورحت أوزع الابتسامات بهذا الفم الذي لم أستطع أن أنطق به جملة واحدة لكثرة اللعاب الذي بدأ يتكاثر بداخله.
ثمة تمتمة خفيفة خرجت من بين شفتي.
-أنت تجاملينني.
-أستغفر ا لله... ليست مجاملة... إنني أقول الحقيقة... إن فناناً عظيماً مثلك جدير بالتقدير والاحترام. ومودتك ستكبر في نفسي يوماً بعد يوم كان عليّ أن أفعل شيئاً... فسعلت.
أكملَت: لكن مع الأسف الشديد بقيت كاتباً لم يفهمه الناس و لم يقدروه لأننا نعيش في بلد متخلف.
برافو.. برافو.. لتتكلم... أي كاتب لا يُسّر من مديح يأتيه مباشرة كنتُ على وشك أن أطيرمن الفرحة، ارتخيت و لم أدرِ ماذا أفعل؟.
-حرام أن تولد في هذا البلد المتخلف الذي لا يفهمكَ فيه أحد.
-ا لله... ا لله المرأة تفكر تماماً كما أفكر بداخلي.
-أين ذلك الإنسان الذي يستطيع فهمك... لا يوجد... لا يوجد قلت في نفسي: تكفيني هذه السعادة من إنسان واحد يفهمني.
-ولكن يا حسن بك (هل ستبقى هكذا) عفواً لو تسمح لي أن أوضح مدى إعجابي بك.
-استغفر ا لله (يا هانم).. هل تتلطفين بذكر اسمك؟.

-من المعجبات بك جداً (ثريا) وأنت يا حسن بك ككل العباقرة تشرب كثيراً أليس كذلك؟.
قالت ذلك وناولتني قدحاً من الشراب الذي لا أعرف نوعه، وبما أنني غير معتاد على الشراب – ولكي أبرهن لها عن دهائي قلت:
-نعم... نعم أشرب كثيراً – حتى وقت النوم وأفرغت الكأس دفعة واحدة في أحشائي فاحترقت وارتفعت الحرارة في عيني.
-أنت محق، دون شراب لا تستطيع إظهار وإبداع هذه الكتابات الجميلة والرائعة.
-عندما أستيقظ في الصباح أبدأ بالشرب إلى وقت النوم.
-وككل الدهاة أيضاً تنام قليلاً أليس كذلك؟.
طبيعي هكذا إذا لم أنم أكثر من عشر ساعات ليلاً وساعتين بعد الظهر لا أستطيع أن أجمع بعضي قلت:
-يكفيني ساعتين أو ثلاثة ساعات من النوم يومياً – وهذا ليس من دهائي وعبقريتي وأحياناً أظل اسبوعاً كاملاً أو شهراً دون أن أنام.
السيدة ثريا نادت النادل الذي كان يمر بالقرب منا... أخذت قدحين من الشراب ثم قالت له:
-يجب أن تأتي إلينا بين وقت وآخر وألا تقطع الشراب عن السيد. بعد قليل جاء النادل يحمل إبريقاً كبيراً من الشراب ثم رفعت قدحها ورفعتها وهي تقول بصحتك أيها الاستاذ القدير.
وما إن نزل الخمر إلى جوفي حتى أحسست بالحرارة تتوزع في أعماقي كالجمر.

-نعم إنّ ما تكتبه يقرؤه الكثيرون لكن من الذي يفهم معناه فهماً دقيقاً وكاملاً، تأوهت قائلاً: آه... لقد جددت جراحي هـذه الليلـة، مـلأتَ كأسينا وقالت:

-عفواً أيها الاستاذ جميع الفنانين الكبار لهم هوايات خاصـة - مـا هـي هوايتك؟.

-تقصدين هوايتي.. أنا.. أنا.. هوايتي أنا شخصياً لا أحـب شيئاً بذاتـه ولا أهوى شيئاً، أما الآن فمـن الضروري أن يكـون لي ذلـك، في هـذه اللحظة جاء النادل يحمل إبريقاً آخر من الشراب وأخذ الإبريق الفارغ.

قلت: إنني أربّي غراباً في منزلي هوايتي تربية الغربان.

-غريب؟! بصحتك يا أستاذ هل أستطيع أن أسأل عن شيء آخر.. هل أُتعبكَ؟.

-لا.. لا بالعكس.

-هل تعتقد بالفـأل؟ وهـل لديـك اعتقـادات خرافيـة.. يقولـون: جميـع المشهورين لديهم مثل تلك الاعتقادات.

-طبعاً... أنا أيضاً لدي بعض الاعتقادات.

-مثلاً.

-لا أدري كيف أفسرها لك؟.

كانت يدها تلمس يدي وساعدها يلف سـاعدي وأصبح لسـاني يغـرّدُ من كثرة الشرب.

-مع امرأة.

-فهمت... وكالدهاة لن تهرم أبداً.

-وأعتقد بالفأل أيضاً فعندما أخرج من البيت أقفز ثلاث خطـوات وإذا لم أقفز فأعمالي تتشربك في ذلك اليوم، طبعاً هذه الأسـرار لا أقولهـا إلا

لك، إنها أسرار خاصة جداً، أَخَذت نفساً طويـلاً وقـالت: إن سـعادتي كبيرة جداً هذه الليلة فاعذرني لاهتمامي الزائد بك، إنني لا أسـتطيع أن أسيطر علـى أعصـابي- أريـد أن أعرفـك أكثر، أعتقـد أنـك تفهـم أحاسيسي آه يا ربي ما أجمل الجلوس جنباً إلى جنب مع إنسان مشهور.

اقتربتْ أكثر - من شدة خجلي تراجعت قليـلاً - ثـم وضعـت رأسـها على كتفي - كيف تكتب؟ يعني هل لديك طبع خاص؟ مثلاً هل تضـع رجليك في ماء حارّ وأنت تكتب أو تأخذ حماماً بخارياً كباقي الكتّـاب، أخذت كأساً ثانية (وكلُّ ما شربته كان ينزل إلى معدتي الخاوية) وهـذا ما أثّر بي تماماً.

-بكل تأكيد... ودون أدنى شك فالإلهام لا يـأتيني إذا لم ألعـب بعض التمارين الرياضية أكثر من نصف ساعة على الأقل.

-تلعب بالآلات أم بغيرها.

-تمارين متنوعة وبهذا وبذاك... أقفز بالحبل وأجري وأرفـع الأثقـال... الخ.

-إنني معجبة بك... هل أحببت إحداهن يا أستاذ؟.

-الثواني التي تمر من عمري دون حب لا أحسبها من الحياة.

-وكما قلت قبـل قليـل الحـب الوحيـد في حيـاتي وقـع في البحـر أثنـاء اعترافي به.

قالت وهي تئن: هيهات حتى الآن لم أقابل الحب الحقيقي كان شـعرها يمسح ذقني ويدها تحمل يدي لتضعها على عينيهـا... إنهـا تبكي قلـت لها: أنا الآخر لم أذق طعم الحب الحقيقي.

وشربنا مجدداً وراح وجهها يمسح وجهي ويسبح فيه كالبطـة الصغيرة التي تعوم قبل أن تتعلم السباحة.

لقد فهمت... يجب على الرجال في هذه المواقف أن يقبّلوا النساء من شفاههن، لكن طيلة حياتي لم أقبل إلا أيدي النساء المعمرات احتراما وتقديراً ثم لا يصح أن أقبّل امرأة وعمري جاوز الستين. كاد قلبي أن يتوقف وأنا في حيرة من أمري. قبّلت يدها وأنا أقول لنفسي لا بد أنها ستقول لي(لست من النساء اللواتي تعرفهن) وستصرخ في وجهي وتحاول تهدئتي، إلا أنها أنّتْ قائلة: لقد أسعدتِني! أنا أيضاً كنت سعيداً

قلت لها: إنني أسعد إنسان في الوجود.

عندما اقترب النادل افترقنا عن بعضنا قليلاً.. وضع إبريق الشراب على الطاولة للمرة الثالثة.

- بصحتك.

قالت بعد أن وضعت الكأس من يدها: أنت أكبر كاتب في العالم كبير كـ تشيخوف وموباسان، ثناؤها المتواصل لي والشراب الذي شربته تركا لي ثقة كبيرة ولأول مرة في حياتي صرخت:

من يكون تشيخوف؟ ومن هذا موباسان؟.

قالت بصوت متهدج ضعيف: أنت كبير كبلزاك وقتها أصابني داء العظمة والكبرياء قلت وأنا أضرب طاولة الحديد بقبضتي: وهل تعدين بلزاك كاتباً؟.

قالت: صحيح، أنت لا تقاس إلا بشكسبير.

كنتُ قد ضيعّت طرف الحبل تماماً، والمسافات أصبحت ضائعة ومحيّرة بعد أن، أفقدتني صوابي أحسست كأنها تقول لي بطرف شفتيها (المعذرة) قلت مختالاً: شكسبير -ها -شكسبير، واحسرتاه أنت أيضاً لا تفهمينني. وبنفس الوتيرة شربت الخمرة المتبقية في الإبريق.

قالت: أرجوك لا تفهمني بشكل خاطئ لا أحد يضاهيك عظمة في دنيا الأدب.

قلت: لا في الماضي ولا في المستقبل.

قالت: نعم أنت إله من آلهة الأدب.

دهشت كثيراً من بداهتها -كانت تقرأ كل ما يدور في رأسي ولأول مرة أقابل إنساناً يفهمني.

قالت: إن ما أردت قوله: إن شكسبير كاد يقترب منك بين فترة وأخرى.

قلت: معقول جداً، كيف لي أن أنكر اقتراب ذلك الرجل الإنكليزي الذي عاش قبلي بعدة مئات من السنين.

قالت: أنت.. أنت، أنت أكبر الجميع -أنت الكبير.

كانت قد بدأت تقول أنت وليس أنتم.

قلت: طبيعي جداً.

قالت: أحبك يا حسن.

كم دار رأسي في تلك اللحظة وكنت على وشك أن أقع عن الكرسي وأتكوم على الأرض.

- أنتَ داهيتي... ستنال جائزة نوبل في أحد الأيام.

- أتظنين أن الذين نالوا جائزة نوبل أفضل مني- طبيعي جداً.. سأنالها ليس مرة واحدة بل عدة مرات.. وسترين.

- إنني أصدقك يا حبيبي... أحبك يا حسن.

- أنا أيضاً أحبك يا ثريا.

أحسست في تلك اللحظة أن جزءاً من عقلي عاد إليّ... بدأت أفكر يا عالم.. يا هو عشت كل هذه المدة و لم تقترب مني أنثى واحدة ما الذي حصل لهذه المرأة الآن.
من قال لها أنني أحمق أو تظن أنني لم أنظر إلى المرآة طوال عمري أتحمل كل شيء إلا أن يضعوني مع الحمقى.. هذا ما لا أتحمله أبداً، في الوقت الذي بدأت الظنون تلعب في رأسي في تلك اللحظة انزلقت ثريا عن الكرسي الحديدي وتمددت فوق الأعشاب، أمسكَت بيدي وسحبتني بقربها، لا أدري ماذا يجب على المرء أن يفعل في مثل هذه المواقف -من حيث المعرفة فأنا أعرف لأنني رجل- ولأنني سمعت من أصدقائي بعض الأحاديث لكني لن أستطيع القيام بذلك لأنها المرّة الأولى التي أصادف فيها مثل هذا الموقف، أردت التخلص من هذا الموقف الصعب فقلت لها:
- ماذا لو رآنا أحد؟.
ليرانا.. ليرانا العالم كله لن أعير انتباهي لأحد لأنني أسعد امرأة هذه الليلة.
- يا إلهي هل أنا في حلم؟ أو متُّ وأخذتني إلى جنتك لأنني دون ذنوب (كل ما قلته بيني وبين ذاتي).
تمددنا فوق الأعشاب جنباً إلى جنب، ووضعت ساعدها تحت رأسي كوسادة- في مثل هذه الأوقات يجب أن ألاّ يظل المرء ثابتاً كالعمود، وكنت ذلك العمود، فلكي أتخلص من هذا الحرج قلت لها:
- لنغيّر وضعيتنا، ربما يأتي النادل.

- ليأتِ وليأت العالم كله -اللهم إلا إذا كنت غير راغب بذلك كانت تبكي كم أنا أحمق حقاً.. عندما رأيت دموعها انتهت ظنوني كيف أشك بإنسانة سلّمت نفسها لي بهذا الشكل.
إذن كما يقولون: الحب أعمى، صحيح هذا القول من شدة حبها لم تلاحظ مدى عجزي وعدم تمكني من القيام بالواجب.
كانت ثريا لا تحبني شخصياً وإنما كاتباً تحب فنه وإبداعه، النساء المثقفات هكذا دائماً، ومع كل هذا كانت بعض الشكوك تراودني قلت لها: هل كل ما ذكرتِ من كلام عني صحيح؟.
- أي كلام.
- ما قلته بأنني أكبر من شكسبير.
- إذن أنت لا تثق بي.
ملأت كأسينا الفارغتين وبعد أن شبكنا يدينا ببعض شرب كل منا من يد الآخر، كم أعجبتني هذه الشطارة الغرامية من ثريا لماذا لا أصدق كلامها؟ أليست زوجة الرسول أول من آمن به وصدّق كلامه!!!.
(لعب الفأر في عبي ثانية) كنت لا أستطيع أن أميّز وجهها على ضوء القمر، لم تكن قبيحة أو هكذا خيل لي، ربما هي عاجز أو حدباء أو عرجاء، بكل تأكيد فيها عيب ما ولا أقدر أن أصدق بأن امرأة مثلها تتلهف للاجتماع برجل مثلي؟
تحركت من مكاني بحجة ملئ الكأس الفارغ، تحركت هي أيضاً وقصدت من ذلك رؤية وجهها في الضوء، ورأيتها.. إنها رائعة كل شيء فيها رائع بكل معنى الكلمة.

عدنا... والقدح في يدي ولكي لا ننام ثانية فوق الأعشاب جلست على أحد الكراسي وجلست هي على كرسي آخر قريب، ورحنا نشرب ثانية.

– من يذري كم امرأة في حياتك؟.

في لحظة قولها لهذا الكلام كان القدح على فمي وإذ بقطرة من الشراب تدخل حنجرتي وبعطسة قوية عادت ثانية قلت وأنا أضع كأسي على الطاولة وبعد أن هيأت نفسي جيداً.

– أنا لا أخطئ أبداً.

– لا تحاول الإنكار... هناك نساء في حياتك.. ويجب أن يكون.

– من الطبيعي أن يكون في حياتي نساء لكنْ لا أعيرهن أدنى اهتمام.

– أنا أعرف أن أولئك النسوة لا يتركنك حتى ولو لم تعيرهن اهتمامك.

– نعم... الحقيقة إنهم يفسدون علي راحتي وسعادتي.

– لا تحسبني من تلك النسوة.

– أنت المرأة الأولى التي فهمتني.

– هن يحمن حولك من أجل شهرتك... أما أنا فأحبك لشخصك ليس إلاّ، ونحن نتبادل الحديث بشكل لطيف تمسكت برأيها قائلة: هيا وضح لي نوع النساء اللواتي يدخلن حياتك.

– لا يجوز ذلك يا روحي... فهذا ليس من شيم الرجال ولا أستطيع فهذا عيب كبير ومهما درت ولففت فلن أقنعها بذلك أخذت الكأس وأفرغتها دفعة واحدة في جوفي.

قلت: تريدين أن تعرفي مشاكلي العاطفية الماضية.

– لا المشاكل الحاضرة.

– هناك فتاة شقراء.

– متزوجة؟.

– هناك شقراء أخرى متزوجة، هذه أرملة، واثنتان سمراوتان.

– وغيرهن.

– واحد قمحية.. أرجوكِ ألّا تخبري أحداً بذلك.

– ما اسمها؟.

– أرجوكِ أن تعذريني من ذلك ليبقَ اسمها سراً – على الأقل–.

– إذن لن تذكر اسمها لي.

– يا روحي أنا لا أخفي عنك شيئاً.

– كأني أعرف اسمها شكران أليس كذلك؟.

– لا شكران... غيرها.. هذه أنحف منها.

– هذا كل ما عندك إذن؟.

– هناك كثيرات، لا أذكر الأسماء. لم تكتفي بهذا، بل طلبت مني أن أقص لها مشاكل كل واحدة منهن، اختلقت لها قصصاً ومغامرات من خيالي.

كانت ثريا تبكي.. وهي تسند رأسها على صدري قالت:

أنا غيورة يا حسن كن لي وحدي يا حسن!.

– من هذه اللحظة أنا لك وحدك أنا تابع لك تساءلت في قرارة نفسي: لماذا لا أسألها أنا الآخر عن حياتها وعن الرجال الذين تعرفهم وما هي مشاكلها معهم.

بدأت تفصح قبل أن أطلب ذلك... تزوجت أربعة رجال ولم أجد السعادة معهم... وأنها عاشت حياة صعبة مؤلمة إذ لم تجد رجلاً يفهم

ما بداخلها ويقدرها حق التقدير بالرغم من أن قلبها ظمآن للحب ومتعطش للغرام.
لشدة تأثري بقصة حياتها المؤلمة لم أستطع أن أضبط أحاسيسي بدأت الدموع تنهمر من عيوني.
قالت: لقد ظهر الرجل الذي فهم ما بداخلي... هو أنت يا حسن وبكينا دماً بدل الدموع، وجهانا ملتصقان... وتمازجت الدموع.
أما بخصوص العودة إلى المنزل فالقطار الأخير سيتحرك الساعة الواحدة والنصف وعندما نظرت إلى ساعتي كانت الواحدة تماماً. المحطة بعيدة جداً ومن الصعب الوصول إليها خلال نصف ساعة قمت.. قالت: هل ستذهب؟.
- لا أستطيع البقاء أكثر... إنه القطار الأخير.
في هذه الأثناء علا صوت رجل يدوي في البستان -ثريا ثريا.
- إنه خالي يبحث عني أعتقد أن أهلي سيذهبون أيضاً.
- أين تسكنين؟.
- في القرية الخضراء.
- كيف ستذهبين لوحدك إلى هناك في هذا الوقت المتأخر؟.
- بسيارة خالي مع زوجته وأولاده.
كنت على وشك أن أقول لها: لا أستطيع العيش بدونك.
- قالت: لا أستطيع أن أعيش بدونك يا حسن... هل أصدقك؟.
قلت: صدّقي.
- اقسم لي.
- أكون بلا شرف أو ناموس...
- اقسمي أنت أيضاً

- لأقبلْ.. إذاً...
كان خالها مايزال يصرخ في البستان ثريا ثريا، أما نحن فكنا لا نستطيع الفراق بأي شكل.
قالت: إذا فقدتك - أقتل نفسي.
- وأنا كذلك.
- لنلتقي غداً.
- أين؟.
- في فلوريا.. نذهب إلى الشاطئ.
- أية ساعة؟.
- التاسعة صباحاً انتظرني على باب شاطئ الجنة.
- لا لا أنا أرفض أن أنتظرك على الباب سأكون - الساعة التاسعة على الشاطئ ستلقيني هناك... لا تدعيني أنتظر طويلاً وتعانقنا... كلما كنت أبكي كان المخاط ينزل من أنفي رغم محاولاتي سحبه إلا أنه رطّب خدها الجميل.
- إلى الملتقى يا حبيبتي.
- مع السلامة يا حسن.
اتجهت ثريا نحو الفيلا المضاءة، واتجهت نحو المحطة، وقتها كنت لا أُبالي بالوزير القديم ولا بالجديد.
كان الطريق المؤدي من الفيلا إلى المحطة يمر بين الأحراش والديس.
أذكر لحظة وصولي إلى الطريق جيداً، لكن لا أدري كيف وجدت نفسي مرمياً في مكان مقفر محاط بأحجار وأشواك وديس.
كنت قد ضللت الطريق ومن فرط سعادتي كنت لا أبالي بالجبال والهضاب حيث كنت على وشك أن أطير بمجرد أن أضرب يدي على

جنبي عدة مرات كنت نشواناً من الحب -وهل يسكر المرء من الحب فقط؟.
بالأساس من الحب والحقيقة من الخمرة وجمال هذه الليلة ونجومها ولشدة سعادتي رحت أدندن أغنية، تسلقت الجبال ونزلت الوديان وبعد فترة لاحظت أن الأغنية التي أدندن بها لم تكن أغنية بل نشيداً أُلّف بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس جمهوريتنا، لم أحفظ طيلة حياتي أغنية شعبية أو عاطفية وقد لاحظت ذلك وأنا أسائل نفسي مستغرباً، كيف توصلت إلى هذه الأغنية عندما عرفت أن هذا النشيد (مارش) اشتهر في الذكرى العاشرة للجمهورية وهذا النشيد يبدأ ب(اخرج بجبهتك المفتوحة).
والحقيقة فأنا لم أخرج من عند ثريا بجبهة مفتوحة بل بعجز تام، واقتنعت أن ترديد هذا النشيد في غير محله، بنفس الوقت بدأت أردد: المرأة الأولى التي فهمتني، بلحن أغنية أكررها، والمضحك في الأمر -أنا لا أعلم في الموسيقا والتلحين شيئاً- إنني في كل مرة أكرر فيها هذه الجملة يخرج اللحن مغايراً للآخر، وأحياناً يخرج من مقام "الغزال" أو مقام "أريا" أو مقام أغنية شعبية أو نشيد حتى المقامات الدينية والأناشيد الإلهية والأصح هكذا خيل لي.
كنت أسير مرنماً: المرأة الأولى التي فهمتني.. قاطعاً الأحراش والأشجار أعرج حيناً وأدب حيناً آخر، وفجأة راح التراب يغور تحت قدمي وجسمي الذي يزن تسعة وسبعين كيلوغراماً وجدته في الفراغ ووقعت في مكان كثير الرطوبة وتدحرجت على صخور قاسية... وجلست، من المعلوم أن الناس لا يجلسون على رؤوسهم وأنا جلست عكسهم، أول ما لامس الأرض هو رأسي، وقدماي كانتا في الهواء...

بدأت أتعرف على المكان المحيط بواسطة أصابعي لكن لم أعرف أين أنا!... ربما بئر جف ماؤه؟ أو مقطع من طرف نهر أو أساس بيت قديم أو ربما حفرة فنية لأحد البيوت النائية، لكن بالرغم من قساوة الموقف لم أرغب أن أترك السعادة التي تعتريني.
بعد أن أسندت ظهري إلى فجوة وبدأت بأغنية الحب التي يتغير مقامها كل مرة.
- المرأأأة الأوووولى التي فهمتني.
كنت سعيداً لدرجة أنني لم أستطع البقاء حتى الصباح في تلك الحفرة أغني لحن حبي، لكن عندما تذكرت موعدي مع ثريا الساعة التاسعة صباحاً في فلوريا، تحركت بسرعة ونظرت إلى ساعتي الفوسفورية، إنها الثانية صباحاً، هذا يعني أن القطار الأخير فاتني وإذا ما صادفت عربة فسأصل البيت الساعة الثالثة ولكي أكون في فلوريا الساعة التاسعة يجب أن أخرج من البيت الساعة السادسة وهذا يعني أن وصولي إلى فلوريا - الساعة التاسعة- مستحيل، تحركت محاولاً القفز.. قفزت وأنا أصرخ ولكي أرفع قوتي المعنوية والجسدية رحت أصرخ مثل طرزان محاولاً الخروج من الحفرة فلم أستطع وباءت كل محاولاتي بالفشل، وتمزقت ثيابي وغرق وجهي ببحر من الدماء من كثرة الجروح والخدوش وبعد عدة محاولات وجدت نفسي عارياً - والمعذرة- لأن ثيابي قد تمزقت واهترأت وسقطت عن جسدي.
بعد محاولتي الأخيرة وجدت نفسي أتدحرج فوق الصخور ونزلت شكاً على الطريق العام - أي لم أكن في حفرة- كما تصورت، بل كنت محصوراً بين الصخور فوق مرتفع على جانب الطريق وقتها عرفت أنني سكران من ذلك الشراب اللعين فلم أكن أستطيع تمييز الطريق من

الأعشاب. فجأة تذكرت الكتاب الهام الذي استعرته من مكتبة صديقي لأيام عدة، لقد وضعته على الطاولة أمامنا.. نسيته هناك مكان ولادة حبي.. يا لهذا الشراب اللعين.. وأنا عدوّ لدود للخمر والشراب. طيلة حياتي لم أشرب ما شربت تلك الليلة، كان أقوى من العرق بل من كافة المشروبات. والكتاب عزيز علي لأنه نادر.. ماذا أفعل الآن؟ إذا عدت ثانية لآخذ الكتاب سأتأخر كثيراً ولن أصل إلى فلوريا في التاسعة صباحاً.

قلت في الصباح الباكر أتصل بصديقي الوزير القديم وأطلب منه أن يحتفظ بالكتاب عنده ويحميه من التلف والضياع.

اتخذت طريقي صوب المحطة مسرعاً متمايلاً، أقع على الأرض بين الحين والآخر أجمع قواي وأسرع ثانية، وحددت اتجاهي نحو المحطة منتظراً أول عربة أصادفها لتقلني.

وأخيراً ظهرت أضواء المحطة لكنها كانت تشبه أضواء المحطة الباهتة في حارتنا فهذه الأضواء يجب أن تتلألأ على أطرافها كما هي العادة. قلت في نفسي: حتى لو كانت هذه الليلة مناسبة لأحد الأعياد الوطنية فالأنوار لا تظهر باهتة هكذا... اقتربت أكثر عرفت بعدها أن هذه المحطة لم تكن التي أعرفها، إنها محطة أخرى وقف أمامها مجموعة من السيارات الخاصة وقد اجتمع السائقون حول إحداها يتمازحون..

اقتربت منهم وسألتهم:

- المعذرة ما اسم هذه المحطة؟.

قال أحد السائقين هذه محطة (ادرنه).

قلت: ليست هذه ادرنة مستحيل أنا في وجهة الأناضول لأنني لم أجتز البحر كي أكون في "أدرنه".. رجاء لا تمزحوا معي ما اسم هذه المحطة؟.

همس أحد السائقين لزميله، يبدو أنه أكل قتله مليحة.

- لماذا تكذب على الرجل؟.

- التفت إليّ ثم قال: هذه محطة (آدي بازار) يا خنزير.. ا الله، ما بك؟ لماذا دهشت هكذا؟...

- قبل قليل خرجت من أحد البيوت القريبة من هنا -يعني أنني وصلت سريعاً إلى "آدي بازار" عفارم علي يبدو أنني أسرعت كثيراً بالرغم من وقوعي عدة مرات في الطريق.

سألني السائق: أين يقع البيت الذي خرجت منه، في محافظة "ملاطية" أم "ديار بكر".

- لا لا ما الذي تقوله يا أخ، في محافظة استانبول المعذرة – لماذا أنيرت المحطة بهذا الشكل مع العلم أن الصباح سينبلج؟.

- ألا تعلم بالذي جرى؟ غريب! مع أن الجرائد كتبت عن الموضوع لقد تم تدشين وضع زجاج النوافذ المكسَّرة في المحطة إنهم يحتفلون ألا تسمع ضحكاتهم.. إنها وليمة كبيرة. "قليلوا التربية" إنهم يسخرون مني... مشيت نحو المحطة، كانت القهقهات تخرج عالياً وعندما نظرت من إحدى النوافذ المفتوحة ماذا وجدت؟ إنه البيت الذي خرجت منه قبل قليل -بيت صديقي العزيز القديم – مَنْ يدري كم مرة غيّرت اتجاهي وفي كل مرة كنت أقع على الأرض وعدت إلى مكان خروجي بدل الذهاب إلى المحطة، لكن لماذا هذه الضحكات المجنونة في الداخل؟.

لا يوجد أحد في الحديقة أو الشرفة الجميع في الصالون، وقفت على الشرفة ونظرت إلى الداخل... حبيبتي ثريا تقول شيئاً من والآخرون يقهقهون ولشدة ضحكهم كان بعضهم يمسك خاصرته وبعضهم الآخر يتدحرج على الأرض وأرجلهم مرفوعة في الهواء وبعضهم تنزل الدموع من عيونه.

امرأة سمينة صرخت: آي... أمان... ثريا (اسكتي إنني سأبول تحتي) اسكتي يا بنت.

كانت وقفتي في مكان مظلم يسترني عن العيون أرى الجميع ولا أحد يراني، قالت ثريا: طيلة حياتي لم أقابل رجلاً ساذجاً بهذا!! الشكل يا للمسكين الذي لم يرحم نفسه قلت له: أنا امرأة حساسة يا حسن بك... سقيته وسقيته وتظاهرت بأنني أشرب... وعندما امتلأ رأسه فكت عقدة لسانه.

قال لا يأتيه الإلهام إلا بعد أن يلعب التمارين الرياضية لمدة نصف ساعة.

تصوروا أنه قال: من يكون بلزاك هذا؟.

كانت تحكي كل شيء من الألف إلى الياء، وتعمل (من الحبة قبة) وبشكل فاضح ومثير، والحاضرون يضحكون أشد الضحك.

قال صديقي الوزير القديم وهو يمسح دموع عينيه:

– أعرف إنه ملك الساذجين.

سألتها امرأة: وهل أعلن عن حبه لك؟.

روت ثريا: طبعاً وكان يبكي كرجل يئن.

هزت الحاضرين موجة أخرى من الضحك.

انسحبتُ رويداً رويداً عن النافذة وأنا مخمور تماماً، وقتها لم أجد سيارة تقلني إلى المنزل، جلست على أحد المقاعد الموجودة في الصالة حتى

الصباح وأنا أفكر بثريا وعملها المشين هذا، ورحت أبرر موقف ثريا واضعاً لها الأعذار: ربما شاهدنا أحدهم ونحن في حالة الغرام أو ربما تحدث أحدهم في الأمر وكثر القيل والقال ولكي تقطع ألسنة الناس اضطرتْ إلى الكذب والمبالغة ولا أعتقد أن ثريا من اللواتي ينكسن بالعهد ويخنّ القسم.

صباح اليوم التالي ركبتُ أول قطار إلى حيدر باشا ثم ركبت باخرة إلى الجسر وابتعتُ سروالاً للسباحة ثم ركبت القطار ثانية إلى فلوريا حتى وصلت الشاطئ.

مرت الساعات مسرعة -التاسعة - العاشرة... الثانية ظهراً، لم أترك زاوية أو منفذاً إلا وبحثت فيه عن ثريا.

المسكينة من يدري ما الذي أصابها من مشاكل بسببي ولذلك لم تأتِ.

انتظرت حتى السابعة مساءً ولم أقطع أملي بمجيئها، وكنتُ على استعداد أن أنتظر أكثر. بالقرب مني ثمة امرأة منبطحة على بطنها فوق الرمال، نظرت إليّ وهي تبتسم.

– هل السيد يأتي للمرة الأولى.

– نعم أول مرة.. لكن كيف عرفتِ ذلك؟.

– لأن جسدك الأبيض لم يرَ الشمس أبداً وظهرك قد احمرَّ كثيراً. أظن أنك لن تستطيع النوم هذه الليلة من شدة الألم...

أتريد أن أدلِكّ ظهرك بقليل من المطرّي (الكريم) سيفيدك كثيراً.

قبل أن أردّ.... ومن العلبة التي تحملها بيدها - بدأت تدهن ظهري وتمسحه، ومن الأمكنة التي كانت تلمسها راحت الحرارة تتأجج مدغدغة أعماقي فتمتمتُ: المرأة الأولى التي فهمتني.

قالت: لم أفهم.

قلت: لا شيء.
قالت وهي تضحك، فبانت أسنانها الذهبية مــن بـين شـفتيها الكبـيرتين ثلاثين ليرة... فضحكت..
- هل تريد أن نذهب إلى الغرفة؟.
- من يكون بلزاك هذا.
- قالت: ومن هو؟ هل هو الذي يخالفك الرأي دائماً.
قلت: سأنال جائزة نوبل للسلام.
قالت: لقد فهمت الآن.. نوبل هو الرجل الذي ينافسك حب امرأة.
لقد جذبتني طرافتكَ... لنترك نوبل هذا... هيا تحرك.
قلت: لنبقَ هنا فوق الرمال... فهذا أفضل.
قالت: حسناً ناولني عشرين ليرة.
لا... سأعطيك ثلاثين ليرة لكن شرط أن تبقي هنا.
وضعتُ رأسي على ساقها (هــل تصدقـون أنـني لأفعـل هـذا) هـي الـتي سحبتني ووضعت رأسي على ساقها.
قالت: ليكن نوبل قرباناً لك.
قلت: المرأة الأولى التي فهمتني.
سألتني: ومن هي؟.
قلت: أنتِ.

*　　*　　*

مورتي - (الموت)

ونحن صغار كانوا يقولون لنا:
"الإنسان لا يعرف أنه مات إلا بعد دفنه بوقت قصير... يموت ويوضع في التابوت، تقام الشعائر الدينية والجنائزية على روحه ثم يدفن ويوضع التراب فوق قبره.
بعد كل هذه الإجراءات وعندما يريد الميت أن يرفع رأسه يرتطم بخشب التابوت فيعرف أنه قد مات، وقتها يقول:
- إذن متُّ.. إيه أيتها الدنيا".
هذه الأقوال كنا نسمعها من الكبار، مهما بدت هذه الأقوال تافهة وغير منطقية لا يستطيع المرء عندما يكبر أن يتخلص من تأثيرها.
وكما يحصل للميت عندما لا يعرف أنه مات إلا بعد أن يصطدم رأسه بخشب التابوت، حصل لي في الأيام القليلة الماضية ما يشبه حادثة المتوفي. ذلك اليوم أحضر لنا ساعي البريد موسوعة كبيرة تتألف من أربعة مجلدات مطبوعة في إيطاليا، الجميع فرح بالموسوعة لأن صورتي قد وضعت عليها، وكتبتْ فيها قصة حياتي، وكأنني سأفهم ذلك بلغتهم الإيطالية كنت أنظر بتمعن إلى المكان المخصص لي في الموسوعة والمكتوب باللغة الإيطالية وإذ بزوجتي تسحبها مني وتنظر بإمعان وفجأة وضعت يدها على فمها.
- آآهه.
-ماذا هناك..
- انظر ما الذي كتبوه؟.
- ماذا كتبوا؟.
- لقد كتبوا عنك -مورتا-.

- هه... وماذا يحصل إن كتبوا عني /مورتا/.
- يا أخي أقول لك.. مورت - مورت -مورت.
- ليقولوا ما يقولون فما الذي حصل؟.
- ولك يا أخي -مورت- معناها الموت.
- آه... إذن تعرفين الإيطالية أيضاً.
- كلمة / مورت / تعني الموت في كل اللغات، وهل هذا بحاجة إلى معرفة الفرنسية / مورت/ مورتل - مورتاليتي- مورتيفير كلها مشتقة من - مورت - وقتها قال ابني:
- نعم بالانكليزية تأتي هكذا... مورتال... مورتوري.
حتى ابنتي قالت: باللغة التركية يقولون (لقد سحبه المورتين).
صرخت بهم: اذهبوا عني - ما الذي تريدون قوله؟ يعني أنا الآن ميت أليس كذلك؟.
- إن متَ أم لم تمت فالكتاب ذكر هذا والجميع سيسمعون نبأ موتك.
- الإنسان لا يموت بمجرد قال الآخرون ذلك.
كنت أمني نفسي كوني لم أمت، لكنْ إذا أردتم الحقيقة، كنت في حالة غير طبيعية لأن قدماي ويداي قد تيبست.
كنت أحاول بشتى الوسائل إزاحة هذا الإحساس الغريب عني بالمزاح واللامبالاة، وإذ بساعي البريد جاء ببريقية أخرى، كانت مرسلة هذه المرة من فيننا ومن مُخرج كتابي الذي طبع هناك، لم تكن البرقية باسمي بل باسم زوجتي وقد جاء فيها: السيدة نيسين.
وصلنا نبأ وفاة زوجكم المرحوم عزيز نيسين عن طريق دار النشر - الفلانية - إن هذا الخبر المؤلم أحزنني كثيراً لأن وفاته المفاجئة تركت مكاناً فارغاً جداً.

أشاركك أحزانك... / فلان الفلاني/.
زوجتي وأولادي بدأوا بالبكاء، أما أنا فرُحت أحاول جاهداً منع الدموع التي ستنزل من عيني.
قلت: هل جننتم؟ ألا ترونني أمامكم سالماً معافى كالعجل، أتصدقون كلام الطليان ولا تصدقون كلامي.
في وجه زوجتي عينان تترقرقان ونبعان يتدفقان بالحنان الجارف قلت لها: طبعاً... إذا لم تثقي بي في حياتي فكيف ستصدقين كلامي وأنا ميت... ماذا؟ وأنا في الحياة.
عدت إلى رشدي فجأة... يا عالم ماذا أقول؟.
تساءلت بيني وبين نفسي والشك يغمرني، هل أنا ميت حقيقة..
هل مت وليس لديَّ خبر بذلك؟.
- تكلمت زوجتي وكأنها قرأت ما يدور بداخلي.
- إننا لا نبكي لأنك متّ ولكننا نبكي لأنهم كتبوا عنك ذلك قالت ابنتي: يجب أن تكذّب هذا الخبر يا أبي - أرسل لهم برقية... - يا عالم يا هو... ليست جريدة كي نكذّب خبرها. هذا كتاب والكتب لا تُكذّب.
عندما بدأ أهل بيتي نسيان خبر موتي فإذ ببرقية تصلهم من أحد أصدقائي في أمريكا -بروفسور كبير - وأخرى من مخرج ألماني وكلتاهما موجهتان إلى زوجتي تشاركانها أحزانها وآلامها، أصبح الأمر جدّياً سأكون ميتاً أمام مسمع ومرأى الجميع.
أخذت الموسوعة إلى صديق يُلمُّ باللغة الإيطالية جيداً، وطلبت منه أن يقرأ ما كتبوا عني:
وقد جاء في الخبر:

"ولد الكاتب / الفلاني / في مدينة استانبول عام ,,,,,١٩١٥ الخ وبما أننا علمنا نبأ وفاته المحزن أثناء طباعة الكتاب... نخبركم أنه قد توفي عام ١٩٦٣".
لن تقدروا أن تفهموا أحاسيسي ومشاعري وألمي.. وإذا لم تحصل معكم حادثة مماثلة، وكيف سيحصل لكم ذلك؟.
الحقيقة - لا أستطيع أن أعبر لكم عن حزني وألمي على وفاتي.
خرجت إلى الشارع والموسوعة في يدي وفي أعماقي إحساس قوي بالألم ورغبة كبيرة بالبكاء، لكن البكاء في الشارع أمر غير مستحسن.
مررت إلى بيت عمتي الكائن في حي / التقسيم / وبكيت ما طاب لي، لا تسألونني لماذا؟... لقد فكرت ماذا لو مت حقيقة... لهذا بكيت؟.
الكثير من الناس يزعمون أنهم لا يخشون الموت، أنا شخصياً من هؤلاء، صدق أو لا تصدق، لا أخاف الموت أبداً، لكن الذي أخشاه أن أموت قبل أن أنهي مشاريعي الكتابية بعد، طبعاً مشاريع كتابية أخرى بعد أن أنهي مشروعي الأول أكون قد مُتُّ وليس لي علم بموتي... كنت أرفع رأسي بين وقت وآخر لأتبيّن أن رأسي لا يصطدم بخشب التابوت - وبما أنني قصير إلى حد ما فإن اصطدامي بشيء ما صعب للغاية، وهذا ما أخشاه.
ولكي أعرف حقيقة أمري - هل أنا حي أم ميت؟ قررت أن أزور أصدقائي.
في البداية مررت بصديق متعهد للبناء - له مكتب في الأبنية المجاورة - كان صديقي يعمل وراء مكتبه، قلت له:
- هل تعلم أنهم كتبوا عني أنني ميت.
دون أن يرفع رأسه عن عمله قال...

- لا يا روحي... لا تصدق، إنهم يكذبون!.
- يعني هل كنت تريدني أن أصدق ذلك... ما الذي تقوله يا رجل؟.
تحركت من هناك غاضباً، وفي الطريق رأيت أحد أصدقائي - وهو يعمل في مجال السينما - حكيت له ما جرى معي وإذ به يقول:
- هل هذا صحيح؟ حرام... واه... واه.
كلهم لا يهتمون بي ولا بكلامي.
بعدما ذهبت إلى صديق محام، يملك مكتباً في / قره كوي / وحكيت له ما جرى.
قال: لنرفع دعوى مستعجلة.. بإذن الله سنربحها.
- لماذا؟.
- كيف لماذا؟ سنرفع دعوى تجارية لأنهم حدّوا من دخلك المادي لأن الناشرين لن يطلبوا أعمالك باعتبارك متّ، إنها دعوى عطل وضرر.
أصدقائي هؤلاء كلهم سواء.
في الطريق صادفت صديقاً صحفياً قلت له:
- يقولون إنني متُّ.
قال: ومن منا حي؟.
- ولك يا أخي ليس كما تعتقد، في يدي وثيقة تثبت ذلك.
- إذن تخلصت من متاعب الحياة.
- يا أخي هذا ليس وقت المزاح.
ثمة امرأة سألتني لماذا أنت حزين هكذا؟.
قصصت لها قصتي كاملة.
قالت: آ آ.. لا تحزن أبداً إن خبر الوفاة من دلائل طول العمر، ستعمّر طويلاً يا بني.

وصلت المنزل، وحاولت أن أهدئ أسرتي قلت لهم:
- لا تخافوا! إن كلمة / مورتي / لا تعبر عن الموت، لقد سألت المختصين بالأمر.
- إذن ما هي؟.
- يقولون إنها آمورتي.
- وما معنى ذلك؟.
- يعني أنا آمورتي أكثر من بقية الكتّاب المذكورين في الموسوعة كيف حصل ذلك وصدقوني..
هتفت إلى أحد أصدقائي وقصصت له نبأ وفاتي في الموسوعة، فصرخ ماذا تقول؟ هل هذا صحيح؟ تفوه... وقتها ذكّرته بديوني وكم كان حزنه كبيراً..
جلستُ أفكر في هذا الأمر طويلاً وبشكل عميق، ربما أنا ميت فعلاً، وبعد قليل سيصطدم رأسي بالخشب، إذا لم أكن ميتاً لماذا يكتبون عني ذلك؟ وهذه الموسوعة كبيرة ومطبوعة في أوروبا - وهم أوروبيون - رجال جديون في أعمالهم لكن من يعرف أنني مت - هم أم أنا؟ بالتأكيد هم، لأنهم الرجال. بعد أن عرفوا قصة حياتي وما عانيته من المتاعب القاسية قالوا: هذا الإنسان لا يستطيع أن يعيش بعد الآن، يجب أن يموت وخاصة تحت هذه الشروط ومن الأفضل أن يموت في عام ١٩٦٣، لأنه لا يستطيع أن يتحمل متاعب هذه الحياة إلى هذا التاريخ.
أصابني إنهاك عام وارتفعت حرارتي، تمددت على الفراش ورحت في غيبوبة وكنت أعود إلى وعيي من وقت لآخر.
قلت في نفسي: لأرفع رأسي وأجلس... وإذ برأسي يصطدم بشيء ما.
- إذن أنا ميت إيه أيتها الدنيا!.

ردّ الطبيب الجالس قرب سريري: ليس هناك تـابوت ولا مـابوت إنـك تقوم وتضرب رأسك على حديد السرير.
عـدت ثانيـة إلى وعيـي... وكنـت أسمع كلمـات كثـيرة، دواء وإبـر وموسوعة... الخ.
ترى هل أنا على قيد الحياة حقيقة؟ على كل الأحوال أنا على قيد الحياة كتبوا أنني مت لكن وفق حساباتهم (من يتحمـل كـل هـذه المعانـاة لا يستطيع البقاء أكثر)...
هذا كلامهم، أما حساباتي فهـي العكـس تمامـاً. مشـاريع أدبيـة كثـيرة تنتظرني... هل أنا أحمق كي أموت؟.

*　　*　　*

الفهرس